

الدكتور
جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ الإسلامي

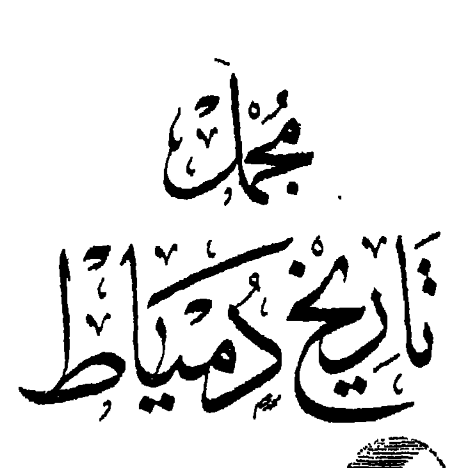
مكتبة الثقافة الدينية



مجمل تاريخ دمياط

أسرة د/ جمال الدين الشيال

الإسكندرية



سياسيا واقتصاديا

تأليف

الدكتور جمال الدين الشيال
أستاذ التاريخ الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

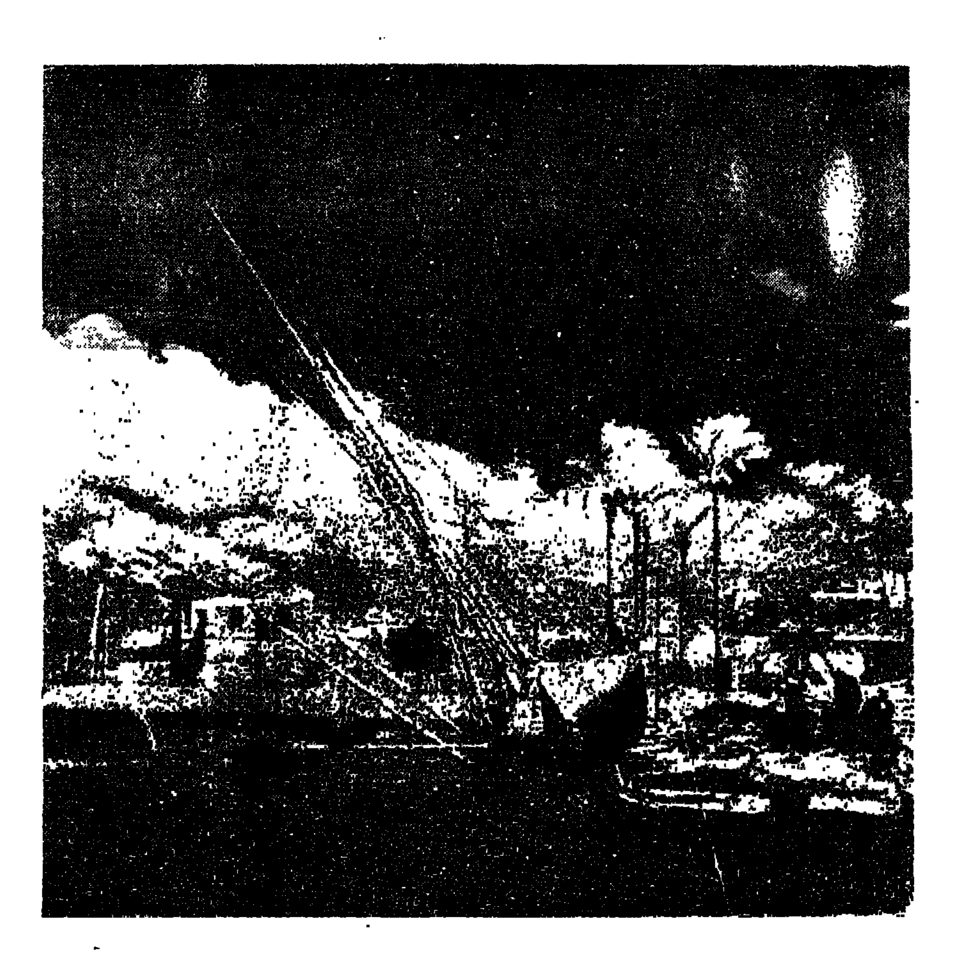
الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد - الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ - فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧

مكتبة الثقافة الدينية

كلمة المؤلف

دمياط وطنى الأول ، فيها ولدت ، وبين ربوعها قضيت طفولتى الأولى : فلها فى نفسى أجمل الذكريات .

وقد عنيت منذ نيف وعشر سنوات بكتابة تاريخ لها ، فقرأت عنها الكثير ، وجمعت أثناء قراءاتى مادة وفيرة ، كنت أدخرها إلى أن يصفو الوقت ، وأفرغ من مشاغلى ، فأتوفر على كتابة هذا التاريخ ، وكنت أطمع ، بل أطمح أن أوفق لإخراج هذا التاريخ كاملا مفصلا ؛ ولكن غرفة دمياط التجارية انتهزت فرصة قيام المعرض الزراعى الصناعى هذا العام وأرادت أن تقدم للناس مجملا يعرف الناس بهذه المدينة فى عصورها المختلفة ، وأحسنت الغرفة بى الظن فكلفتنى بكتابة هذا المجمل فى وقت كانت تغمرنى فيه شواغل العمل والحياة ، ولكننى استجبت لرغبتها الكريمة . وها أنذا أقدم هذا المجمل ، وغاية ما أرجو أن أوفق فى القريب إن شاء الله لتقديم تاريخ للمدينة كبير ، أفصل فيه ما أجمل ، وأوضح فيه ما غمض ، وأستوفى فيه ما نقص ، فان لدمياط فى نظرى نواحى أخرى لا تزال تحتاج للتأريخ ، وأهمها التاريخ العلمى للمدينة .



ناحية من شاطىء دمياط

تاريخ المدينة السياسى

دمياط
في العصور القديمة

دمياط مدينة عريقة فى القدم ، ذكرت فى التوراة باسم (كفتور) ، وعرفت فى العصر اليونانى باسم (تامياتس Tamiatis) وفى العصر القبطى باسم (تاميات Tamiat) (أو تامياتى Tamiati) — ويقال إن معنى هذا اللفظ فى اللغة المصرية القديمة : —الأرض الشمالية أو الأرض التى تنبت الكتان — ، ومع هذا فنحن لانكاد نجد لها ذكراً فى المراجع القديمة ، وإنما تبدأ معرفتنا بها بعد الفتح الإسلامى لمصر .

ولعل السر فى غموض تاريخها القديم أن فرع دمياط كان أقل فروع النيل السبعة القديمة أهمية ، وكان الفرع البلوزى الذى يصب فى البحر عند مدينة بلوزيم — أو الفرما — أهم الفروع التى تمر بشرق الدلتا ؛ وأنه كان يجاور دمياط على شاطىء البحر الأبيض المتوسط مدينتان قديمتان ، لها مالها من سمات ومميزات ، وهما : مدينة تنيس ، ومدينة الفرما أو (بلوزيم Pelusium) ، فكل منهما كانت تشرف على البحر الأبيض المتوسط : الفرما عند نهاية الفرع البلوزى ، وتنيس عند نهاية نهير صغير كان يخرج من فرع دمياط ، ويسمى الفرع التنيسى .

وكان موقع هاتين المدينتين ممتازاً من الناحيتين الحربية والتجارية ، بل لعلهما كانتا تفوقان دمياط القديمة فى هاتين الناحيتين ، فتنيس كانت جزيرة فى الطرف الشرقى من البحيرة التى كانت تحمل اسمها (بحيرة تنيس أو المنزلة الحالية) ، كما كانت هى والفرما تقعان فى نهاية خط مستقيم تقريباً يمتد عبره طريق قوافل صحراوى يصل بينهما وبين ميناء البحر الأحمر الهامة : القلزم (أو السويس الحالية) ، فكانت تجارات الشرق التى تصل إلى القلزم تحمل منها عبر هذا الطريق إلى الفرما حيث تحملها سفن البحر الأبيض المتوسط إلى سواحل الشام وآسيا الصغرى واليونان ؛ وهاتان المدينتان — إلى هذا كله — أقرب إلى هذه السواحل من دمياط .

دميـــاط
في العصر العربى

الفتح العربى :

فاذا كان الفتح العربى (سنة ٢٠هـ — ٦٤٠) فانا نجد هذه المدن الثلاث تقاوم مقاومة عنيفة ، فلا تخضع إلا بعد جهاد مرير ، ومعرفتنا بأخبار دمياط التفصيلية تبدأ بحوادث هذا الفتح ؛ فقد وجه الجيش العربى — بعد استيلائه على حصن بابليون — فرقاً منه بقيادة البطل العربى المقداد بن الأسود لإخضاع مدن الشاطىء الشرقى ، وتقول الرواية العربية إن المدينة وقت الفتح كان يحيط بها سور قوى ، وإن جندها بقى يقاوم مدة طويلة داخل هذا السور، فلما طال الحصار جمع (الهاموك) — حاكم المدينة — أصحابه وشاورهم فى الأمر ، فنصحه سوادهم بالتسليم ، ولكنه خالفهم وظل يقاوم ، وكان له ابن يسمى شطا ، فخرج إلى المسلمين فى الليل ، ودلهم على عورات البلد ، فلم يشعر الهاموك إلا والمسلمون يكبرون على سور المدينة ويدخلونها. ثم سار الجيش العربى إلى تنيس ، فلقى من حصانة موقعها — كجزيرة تحيط بها المياه — ومن حاميتها نضالا أشد وأعنف ، وتعود الرواية العربية فتذكر أنه عندما اشتد النضال للاستيلاء على تنيس تقدم شطا لمساعدة العرب — ومعه ألفان من الجند — فأعلن إسلامه ، واشترك فى قتال أهل تنيس فأبلى بلاء حسنا إلى أن استشهد فى ليلة الجمعة النصف من شعبان سنة ٢١هـ (١٩ يوليو ٦٤٢) فقبر حيث هو الآن خارج دمياط .

وهذه الرواية العربية لاتقف طويلا أمام النقد التاريخى ، فان مدينة شطا — التى يقال إنها سميت باسم هذا القائد المدفون بها — كانت موجودة ومعروفة بهذا الاسم قبل الفتح ، كما أن حاكم دمياط فى ذلك الوقت معروف أيضا ، وقد ذكر المؤرخ حنا النقيوسى أنه كان

يسمى (حنا) لا (شطا) ولا (الهاموك) . غير أننا مع هذا لا نستطيع أن نتجاهل بعض الحقائق الثابتة المتصلة بهذا الحادث ، فالمؤرخون العرب يذكرون أن هذا البطل قد استشهد يوم الجمعة النصف من شعبان سنة ٢١ هـ ، وهذا التاريخ يقابل التاسع عشر من يوليو سنة ٦٤٢ م ، وهو العام الذى تم فيه فتح هذه المنطقة ، كما أن التقاويم تثبت أن هذا اليوم كان يوم جمعة حقا ، فاذا قرنا هاتين الحقيقتين بحقيقة ثالثة ، وهى وجود قبر خاص فى قرية شطا لا يزال قائما ، ولا يزال أهالى دمياط يحتفلون بذكرى صاحبه فى النصف من شعبان من كل سنة حتى اليوم ، استطعنا أن نصل إلى حل معقول ، وهو أن قائدا رومانيا انضم إلى العرب فعلا أثناء حربهم لدمياط وتنيس ؛ وأنه استشهد فى هذ التاريخ ودفن فى هذا المكان ، أما اسمه الحقيق فلسنا نعرفه ؛ ولكن هذا الاسم لم يكن شطا على كل حال ، وإذ اكان كذلك فانه لم يكن قطعا حاكما لدمياط أو ابنا لحاكمها .

دمياط فى عصر الامارة :

وخلصت مصر للعرب بعد إتمام فتحها ، وعين على دمياط وتنيس ولاة من المسلمين يحكمونهما ؛ غير أن معظم أهليهما ظلوا على دينهم المسيحى سنين طويلة بعد ذلك ؛ ولم تنس الدولة البيزنطية أنها قد فقدت — بخروجها من مصر — خير أملاكها ، فظلت قرونا طويلة تغير على شواطئ مصر الشمالية بأساطيلها عساها تستطيع استردادها ، وكانت أولى هذه المحاولات فى عهد الوالى العربى الثانى على مصر — عبد الله بن سعد بن أبى السرح — ، ولكن أساطيل الروم هزمت فى موقعة ذات الصوارى ، ولم تثنهم هذه الهزيمة عن عزمهم ، فظلوا يغيرون على سواحل مصر ، وإنما اتجهت غاراتهم بعد ذلك عن الاسكندرية إلى موانىء مصر الشرقية : الفرما وتنيس ودمياط ، مما دفع الخلافة الإسلامية وولاة مصر من العرب إلى العناية كل العناية بتحصين هذه الموانىء وتزويدها بالحاميات تقيم وترابط فيها داءاً للدفاع عنها براً وبحراً .

وقد قام جند دمياط وحاميتها فى القرون الإسلامية الأولى بواجبهم خير قيام ، فردوا عن المدينة غزوات الروم المتتابعة ، كما كانوا يسهمون فى إخضاع الثورات الداخلية التى كان يقوم بها سكان الحوف الشرقى (أى الأراضى الواقعة شرقى الدلتا) ، وكانت غالبيتهم من الأقباط .

تعددت غارات الروم على دمياط فى القرون الثلاثة الهجرية الأولى ، وقد أشار المؤرخون إلى بعضها ، وهى التى حدثت فى السنوات : ٩٠ (٧٠٩) و ١٢١ (٧٣٨) و ٢٣٨ (٨٥٣) و ٢٤٥ (٨٥٩) و ٢٤٧ (٨٦١) و ٣٥٧ (٩٦٨) . وكانت أخطر هذه الغارات وأهمها الغارة التى وفدت على دمياط فى سنة ٢٣٨ (٨٥٣) فى عهد ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر .

فى تلك السنة وفد الروم إلى دمياط يحملهم أسطول كبير يزيد على ثلاثمائة سفينة ، واستطاعوا أن ينزلوا إلى المدينة ويستولوا عليها ، فقتلوا عدداً كبيراً من سكانها وسبوا النساء ، وساعدهم على هذا كله خلو المدينة وقتذاك من حاميتها وجندها ، فقد انتهز والى مصر — عنبسة بن إسحاق — فرصة عيد الأضحى من تلك السنة ، وأراد أن يحتفل بطهور ولديه حتى يجمع بين العيد والفرح ، واحتفل لهذا احتفالا كبيراً ، فدعا إليه حاميات دمياط وتنيس والاسكندرية ليشتركوا فى هذا الحفل ، ويبدو أنه كان للروم عيون وجواسيس فى هذه الثغور ، فأبلغوهم خبر استدعاء حامياتها ، فانتهزوا هذه الفرصة السانحة ، وانقضوا على دمياط صباح يوم عرفة ، فقتلوا ونهبوا وأسروا ؛ ولكن الكتب التاريخية تروى أن عنبسة كان قد غضب على قائد من قواد دمياط يدعى أبو جعفر بن الأكشف ، فسجنه فى بعض أبرجة المدينة ، فلما اشتد الخطب بنزول الروم ، مضى إلى أبى جعفر فى سجنه بعض أعوانه ، فكسروا قيده وأخرجوه ، والتفوا حوله ، وانضم إليهم نفر من أهل المدينة وتقدموا جميعاً لمحاربة الروم حتى هزموهم وأخرجوهم من المدينة ، فنزحوا عنها إلى تنيس فلم يقدروا عليها ، وعادوا إلى بلادهم .

وبلغ الخبر إلى عنبسة فى عاصمته — الفسطاط — فنفر فى الحال بجند مصر ، ولكنه وصل إلى دمياط متأخراً بعد مغادرة الروم لها ، فأخذ يعنى بتحصين المدينة .

وأخبار الفتح العربى لمصر تروى أن دمياط القديمة كان يحيط بها سور، فلعله انشىء فى عهد الرومان ، وأخبار هذه الغارة تروى أيضاً أن أبا جعفر بن الأكشف سجن فى بعض أبرجة المدينة ؛ فالمدينة إذن كان لها سور قديم ، وكان بها بعض الأبرجة والحصون ؛ ولكن نجاح هذه الغارة يبين أن هذه التحصينات جميعاً كانت قد تهدمت وتشعث بنيانها ، لهذا لم يكن من الغريب أن يأخذ الذعر من الخليفة العباسى المتوكل مأخذه عندما تصله أخبار هذه الغارة الخطرة ، فيرسل فى الحال إلى واليه على مصر يأمره ببناء أسوار قوية تحيط بثغور مصر الشرقية : دمياط وتنيس والفرما ؛ وأسرع عنبسة بتنفيذ أوامر الخليفة : فبدأ فى بناء سور دمياط وحصونها يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٢٣٩ (٥ فبراير ٨٥٤) ؛ وفى نفس السنة بنيت أسوار تنيس والفرما وحصونهما .

وكان لهذه الغارة أثر خطير آخر ، فقد أدرك الخليفة أيضاً أن هذه الأسوار والحصون لاتكفى للدفاع عن ثغور تطل على البحر ، وإنما الدفاع الحق عنها يكون بانشاء الأساطيل ، لأن الروم لايفدون اليها إلا فى البحر وفى أساطيل قوية ، فأمر واليه أن يعنى بشئون الأساطيل ، يقول المؤرخ المصرى الكبير تقى الدين المقريزى تعقيباً على أخبار هذه الغارة : «وأنشأ من حينئذ الأسطول بمصر» ، ويقول فى مكان آخر : « فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر، وانتدب الأمراء له الرماة، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية» ؛ فالفضل فى إنشاء أساطيل مصرية — سيكون لها شأن أى شأن فى الدفاع عن سواحل مصر بعد ذلك ، وفى حروب مصر الإسلامية — إنما يرجع إلى هذه الغارة .

ونحن نلاحظ أن العناية بتحصين دمياط براً وبحراً فى عهد المتوكل قد أتت ثمارها ، فلم تفد على دمياط غارة بعد ذلك قوية خطيرة كتلك التى وفدت فى عهد عنبسة ، وإنما كانت الغارات اللاحقة جميعاً غارات قرصنة هدفها الأول والأخير النهب والسلب ، والأسر والقتل ، أما دمياط فبقيت سليمة ترد عادية المعتدين بفضل جندها وأهلها وحصونها وأساطيلها .

دمياط فى العصر الفاطمى :

وقد ازدهرت دمياط فى العصر الفاطمى، و بدأت تتفوق على رصيفتيها تنيس والفرما ، وتأخذ مكان الصدارة بين موانىء مصر الشرقية ، وساعدها على هذا أن الفرع البلوزى أخذ منذ ذلك الحين يضيق وتطمره الرمال ويفقد أهميته شيئاً فشيئاً ، بينما أخذ فرع دمياط يتسع و ينطلق إلى البحر وتزيد أهميته و يكثر استعماله .

ولعل أكبر الدوافع التى دفعت الفاطميين للعناية بثغر دمياط أنه كان مركزاً هاماً لصناعة النسيج ، وتحيط به وتتبعه مدن وقرى كثيرة كلها مراكز لصناعة النسيج أيضاً ، فقد كانت مصر تنقسم إدارياً وقتذاك إلى كور (وواحدتها كورة) ، وهى ما يقابل المديرية أوالمحافظة فى مصطلحنا الحديث ؛ وكان الجزء الشمالى الشرقى من مصر يكون كورة كبيرة واحدة تسمى (كورة تنيس ودمياط) ، وللكورة — كما يتبين من اسمها مركزان هامان ، هما : تنيس ودمياط ، لاتفضل إحداهما الأخرى ، وإنما كانتا تتناوبان فى احتلال الصدارة بين مدن هذه الكورة إلى أن ضعف شأن تنيس وتلاشت فى العصر الأيوبى ، فأصبحت دمياط هى المدينة الأولى بين مدن هذه الكورة .

وكان يتبع دمياط مدن وقرى كثيرة لها ذكر ومقام ملحوظ فى أقوال المؤرخين ، لأنها كانت جميعاً مراكز هامة — كما ذكرنا — لصناعة النسيج ، وأهم هذه المدن : شطا وتنيس وتونة و بورة ودبيق .

وكان يلى دمياط وتنيس دائماً واليان من قبل والى مصر العام ، ثم من قبل الخلفاء الفاطميين بعد ذلك ، كما كان يشرف على القضاء فى مصر كلها قاض أكبر ، وهو الذى لقب فى أول العصر الفاطمى بقاضى القضاة ، وكان هذا القاضى الأكبر — أو قاضى القضاة — يعين من قبله قضاة ينوبون عنه فى الحكم بالمدن الكبيرة كدمياط وتنيس ، وكان هذا القاضى يتخذ مقره فى تنيس أحيانا وينيب عنه بدوره من يتولى عنه الحكم فى دمياط ، وقد يحدث العكس ، أو قد يتولى الحكم بنفسه فى المدينتين متنقلا بينهما .

ويستفاد من كلام الكندى وهو يؤرخ لبعض قضاة دمياط أن قاضى هذه المدينة فى العصر الفاطمى كان يمكث بها تسعة أشهر للنظر فى القضايا والأحكام ، ثم يعود إلى الفسطاط فيقيم بها «ثلاثة أشهر : رجب وشعبان ورمضان ... بحسب العادة».

وكان فى كل من دمياط وتنيس فى العصر الفاطمى محتسب خاص — يعين من قبل محتسب القاهرة — للإشراف على شوءون المدينتين الاجتماعية والاقتصادية .

والدولة الفاطمية نشأت أول ما نشأت فى تونس — وكانت تسمى وقتذاك إفريقية وهى إقليم يطل على البحر الأبيض المتوسط ؛ ولهذا عنى الفاطميون — وهم لا يزالون فى إفريقية — عناية فائقة بالأسطول ، فأنشأوا السفن الكثيرة وزودوها بالرجال والعتاد ، وقد أسهمت أساطيلهم مساهمة فعالة فى غاراتهم المتتالية على مصر حتى تم لهم فتحها فى سنة ٣٥٨هـ .

فلما انتقلوا إلى مصر لم تقل عنايتهم بالأساطيل ، بل زادت ، ويقال إن المعز — أول خلفائهم بمصر — أنشأ فى عهده أسطولا يتكون من ستمائة سفينة .

وكانت هذه السفن الحربية تبنى فيما كان يسمى فى العصور الإسلامية : (دار الصناعة) أى دار صناعة السفن ؛ وكان فى الفسطاط قبل العصر الفاطمى دار صناعة فأبقى عليها الفاطميون ، وأنشأوا إلى جانبها دار صناعة جديدة فى (المقس) — ميناء القاهرة — ، وكان هناك لاشك دار صناعة فى دمياط منذ بدىء بانشاء الأسطول فى عهد عنبسة ، كما كانت هناك دار صناعة أخرى فى الاسكندرية .

وقد عنى الفاطميون عناية زائدة بهذه الدور ، وخاصة دار صناعة دمياط : فقد دخلت بلاد الشام فى ملكهم ، ودمياط أقرب موانىء مصر لهذه البلاد ، كما أنها معرضة لغارات الصليبيين عليها كما كانت معرضة لغارات البيزنطيين من قبل .

وكان الفاطميون يعنون بالأساطيل وتجهيزها والإشراف على الثغور عناية سنوية دائمة لا تقف ولا تنقطع ؛ وكان موعد هذه العناية فى شهر برمهات من كل سنة عندما يصحو الجو، يقول المقريزى : «وفى برمهات تجرى المراكب السفرية فى البحر الملح إلى ديار مصر من المغرب والروم ، ويهتم فيه بتجديد الأجناد إلى الثغور كالاسكندرية

ودمياط وتنيس ورشيد ، وفيه كانت تجهز الأساطيل ومراكب الشوانى لحفظ الثغور » وينص فى مكان آخر على أن سفن الأسطول كانت تصنع فى دور الصناعة جميعاً فى مصر والاسكندرية ودمياط ، يقول : « وكان من أهم أمورهم (يقصد الفاطميين) احتفالهم بالأساطيل والأجناد ، ومواصلة انشاء المراكب بمصر والاسكندرية ودمياط من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات إلى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم ، مثل صور وعكا وعسقلان» .

وكان أسطول دمياط يقوم على حمايتها من عدوان المغير، كما حدث فى عهد الخليفة الفاطمى الفائز ، فنى جمادى الاخرة من سنة ٥٥٠ هـ (اغسطس ١١٥٥) وصل إلى دمياط أسطول صاحب صقلية فى نحوستين مركباً «فعاثوا وقتلوا ونزلوا بتنيس ورشيد والاسكندرية فأكثروا فيها الفساد » فتصدى لهم أسطول دمياط حتى ردهم .

وحدث أيضا فى خلافة العاضد — آخر خلفائهم — ووزارة شاور الثانية ، أن نزل أسطول الصليبيين فى عشرين شونة (أى سفينة حربية كبيرة) على تنيس فقتل وأسر وسبى ، فتولى أسطول دمياط محاربة هذه السفن وردها .

هاتان هما الغارتان اللتان نزلتا على دمياط وما يجاورها طيلة العصر الفاطمى ، إحداهما وفدت من صقلية ، والثانية أرسلها الصليبيون فى الشام ، مما يبين فى وضوح أن غارات البيزنطيين على شواطىء مصر قد انقطعت فى العصر الفاطمى ، ولعل السبب فى هذا أن الدولة البيزنطية كانت قد أصابها الضعف والكلال ، وأن العلاقات بين الفاطميين والبيزنطيين كانت فى معظمها علاقات طيبة .

ولكننا نلاحظ أيضاً أن خطراً مسيحياً جديداً أخذ يظهر فى الأفق ، ويهدد دمياط وسواحل مصر ؛ كان يمثل هذا الخطر أساطيل النورمانديين فى صقلية : وأساطيل الصليبيين فى سواحل الشام بعد استيلائهم عليها فى أعقاب الحملة الصليبية الأولى فى أواخر القرن الخامس الهجرى (١١ م).

غير أن واجب الأسطول المصرى فى العصر الفاطمى لم يكن مقصوراً على الدفاع عن الشواطىء فحسب ، وإنما كان واجبه الأصلى الخروج إلى مياه البحر الأبيض

المتوسط للغزو، وكانت الأساطيل تخرج للغزو من ثغر دمياط — لا من الأسكندرية — فاذا عادت بغنائمها نزلت عليه أولا .

وكان الخلفاء الفاطميون يحتفلون بالأساطيل عند خروجها للغزو احتفالا كبيراً رائعاً ؛ فقد كان لهم منظرة بالمقس (ميناء القاهرة) يجلس فيها الخليفة لوداع الأسطول قبل خروجه للغزو، ولاستقباله إذا عاد ، وكانت العادة إذا تم إعداد الأساطيل أن يجلس الخليفة فى هذه المنظرة وبين يديه الوزير، ويأتى القواد بالسفن من دار الصناعة بالفسطاط حتى يصلو بها إلى المقس ، فيقومون بعرض حربى بحرى جميل ، فتتحرك السفن فى النيل بين يدى الخليفة «وهى مزينة بأسلحتها ولبوسها ، وفيها المنجنيقات : تلعب فتنحدر ، وتقلع بالمجاذيف ، كما يفعل فى لقاء العدو بالبحر الملح ، ويحضر بين يدى الخليفة المقدم والرئيس ، فيوصيهما ، ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة...إلخ » ، هكذا وصف المقريزى فى خططه حفلة العرض البحرى قبل خروج الأساطيل المصرية للغزو فى العصر الفاطمى ؛ ثم استطرد فنص فى وضوح تام على أن هذه الأساطيل كانت تخرج للغزو من ثغر دمياط ، قال : «وتنحدر إلى دمياط ، وتخرج إلى البحر الملح ، فيكون لها ببلاد العدو صيت وهيبة ، فاذا وقع لهم مركب لا يسألون عما فيه سوى الصغار والرجال والنساء والسلاح ، وما عدا ذلك فللاسطول » أى أن رجال الأسطول كانوا يقدمون للدولة أسراهم من الأطفال والرجال والنساء ، وغنيمتهم من السلاح ؛ أما غنائمهم من الأموال والمتاع فكانت تترك لهم جزاء وفاقا على بلائهم فى الغزو .

وقد وصلتنا أخبار قليلة عن بعض هذه الغزوات البحرية وانتصاراتها فى العصر الفاطمى ، وكيف كانت تستقبل عند عودتها ، وماذا كان يفعل بأسراها .

ذكر المقريزى أنه قدم على الأسطول مرة أمير يقال له : حرب بن فور ، فكسب بطسة (أى سفينة حربية كبيرة) حصل فيها خمسمائة رجل ..

واتفق مرة أن قدم على الأسطول قائد آخر يدعى سيف الملك الجمل ، فخرج للغزو، وأسر بطسة عظيمة فيها ألف وخمسمائة شخص : بعد أن قتل منهم نحواً من مائة وعشرين رجلا ، وعاد بالسفينة والأسرى إلى دمياط ، ثم صعد بها إلى القاهرة ، فخرج الخليفة إلى منظرة المقس ، واحتفل بعودته احتفالا رائعاً ، وأطلق الأسرى بين

يديه ، «واستدعيت الجمال لركوبهم ، وشق بهم القاهرة ومصر ، وهم كل اثنين على جمل ظهراً لظهر» .

دمياط فى العصر الأيوبى:

وفى منتصف القرن السادس الهجرى (١٢م) قضى على الدولة الفاطمية الشيعية وخلفتها فى حكم مصر دولة جديدة سنية المذهب هى دولة بنى أيوب ؛ وفى عهد بنى أيوب لعبت دمياط دوراً خطيراً فى تاريخ مصر السياسى والحربى ؛ فقد كثرت غارات الصليبيين العنيفة على هذا الثغر ، ولكن دمياط صمدت لهذه الغارات ؛ ودافعتها ودفعتها فى شجاعة وبطولة :

١ ـ فى عصر صلاح الدين

بدأت هذه الغارات فى سنة ٥٦٥ وصلاح الدين لايزال يعد وزيراً للعاضد : فنى الثالث من صفر من تلك السنة وصلت إلى دمياط أساطيل الصليبيين فى نحو ألف مركب تحمل مائتى ألف فارس وراجل ، واستطاعوا أن ينزلوا بالبر ؛ وظلوا يحاصرون المدينة ثلاثة وخمسين يوما ، فأسرع صلاح الدين وأرسل اليها الجيوش بقيادة ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه وخاله شهاب الدين الحارمى ، وأسرع الخليفة العاضد فقدم لصلاح الدين كل مساعدة ممكنة ، ثم خرج صلاح الدين بنفسه ليشرف على القتال فى دمياط ، ووصلت أخبار هذه الحملة إلى نور الدين فى الشام ، فأرسل إليه الأمداد ، وخرج نور الدين بنفسه لمناوشة أملاك الصليبيين فى الشام ، فاضطروا أمام هذا وذاك أن يغادروا المدينة فى الحادى والعشرين من ربيع الأول بعد هذا الحصار الطويل دون أن يصيبوا منها شيئا ، وبعد أن «غرق لهم نحو ثلاثمائة مركب ، وقلت رجالهم بفناء وقع فيهم ، وأحرقوا ما ثقل عليهم حمله من المنجنيقات وغيرها» .

واجه صلاح الدين هذه الشدة العظمى فى دمياط وهو لايزال يخطو خطواته الأولى نحو ملك مصر ، لهذا نجده يعنى بهذا الثغر وبتحصينه — فى قابل أيامه — عناية

خاصة ؛ فى الثانى والعشرين من شعبان سنة ٥٧٢ (فبراير ١١٧٧) — وقد استقل صلاح الدين بمصر — خرج من القاهرة فقصد إلى دمياط لزيارتها ، وكان فى صحبته ولداه : الأفضل على ، والعزيز عثمان ، وكاتبه العماد الأصفهانى ، فمكث بالمدينة يومين ثم رحل منها إلى الاسكندرية ، وقد حدد العماد الأصفهانى الغرض من هذه الزيارة بقوله : « ورأى (أى صلاح الدين) فى الحضور بالثغر المذكور ومشاهدته الاحتياط » ، كما ذكر أن سفن الأسطول بدمياط كانت قد خرجت للغزو وعادت بسبى كثير ، قال : «وكان له سبى كثير جلبه الأسطول» .

وفى سنة ٥٧٧ (١١٨١—١١٨٢) كان قد مضى على صلاح الدين منذ استقل بمصر عشر سنوات ، وأراد أن يرحل إلى الشام ليوفر جهوده كلها لتحقيق هدفه الأسمى وهو محاربة الصليبيين وطردهم من البلاد الإسلامية ، ولكنه أراد — قبل أن يغادر مصر — أن يستوثق من مناعتها وقوة حصونها وثغورها ، ففى هذه السنة بدأ بناء قلعة الجبل بالقاهرة ، وفيها (فى ربيع الأول) أغار الفرنج على تنيس واغتصبوا مركباً للتجار ، فاشتد خوف أهلها ، وأرسل السلطان رجاله لعمارة قلعة تنيس وتجديد الآلات بها ، فقدروا «لعمارة سورها القديم على أساساته الباقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار» ، وفيها أيضاً انتشر الخبر بأن (الابرنس ارناط) صاحب الكرك على عزم الخروج إلى أيلة ومنها إلى تيماء رغبة فى الاستيلاء على المدينة المنورة « فورد الخبر من نائب قلعة أيلة بشدة الخوف من الفرنج » .

واتخذ صلاح الدين لهذا الخطر عدته ، فاستدعى خمسين مركباً من مراكب دمياط لتشارك فى حماية ساحل مصر (الفسطاط) ، وأمر ببناء برج فى السويس فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد ، وأمر بعمارة قلعة تنيس وأسوارها — كما سبق أن ذكرنا — وكتب إلى دمياط بترتيب المقاتلة على البرجين بها ، فشدت المراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ، ورم شعث سور المدينة ، وسدت ثلمه ، واتقنت السلسلة التى بين البرجين ، يقول المقريزى : «فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار» .

وفى شعبان من نفس السنة شرع فى إصلاح سور دمياط وبناء ما تهدم منه ، وكان ذرع هذا السور كما نص المقريزى : « أربعة آلاف وستمائة وثلاثون ذراعاً » كما شرع فى بناء برج جديد بالمدينة .

ولم يقنع صلاح الدين بهذه الأوامر يصدرها ، وإنما رحل بنفسه فى شهر شوال إلى مدينة الاسكندرية فأشرف على حصونها وأسوارها ، وتركها فى أول ذى القعدة فسار إلى دمياط وأشرف بنفسه أيضاً على ما تم من إصلاح أسوارها وتحصين قلاعها وأبراجها وسلسلتها ثم عاد إلى القاهرة .

وظلت العناية بدمياط وتنيس دائبة مستمرة حتى آخر سنة من حياة صلاح الدين ، ففى سنة ٥٨٨ — أى قبل وفاته بسنة واحدة — صدر الأمر باخلاء تنيس ونقل أهلها إلى دمياط ، فخلت تنيس إلا من المقاتلة ، كما صدر الأمر بحفر خندق حول دمياط وعمل جسر عند سلسلة البرج بها .

هذه هى دمياط حتى آخر عهد صلاح الدين ، قد عنى بتحصينها العناية الفائقة فحفر حولها خندق يحميها ، ورممت أسوارها ترميما شاملا ، وبنى بها برج جديد ، وجددت سلسلتها ، وبنى عندها جسر لحمايتها ، وشدت إليها السفن لتقاتل عنها المغيرين ؛ وشحنت هذه الحصون جميعاً بالمقاتلة ؛ وزيد عددهم ؛ وزادت النفقة عليهم .

ولم تنقطع العناية بدمياط فى عهد خلفاء صلاح الدين ، بل استمرت وزادت ، فالمؤرخون يروون أن العزيز بن صلاح الدين ، عزم فى ذى الحجة من سنة ٥٩٢ (اكتوبر ١١٩٥) «على نقض الأهرام ونقل حجارتها إلى سور دمياط ؛ فقيل له إن المؤونة تعظم فى هدمها والفائدة تقل من حجرها . فانتقل رأيه من الهرمين إلى الهرم الصغير وهو مبنى بالحجارة الصوان ، فشرع فى هدمه» ؛ ولكن هؤلاء المؤرخين لم يذكروا بعد هذا هل نقلت حجارة هذا الهرم الصغير فعلا لتحصين سور دمياط أو أنها استخدمت فى أغراض أخرى .

وفى عهد العادل أبى بكر — أخى صلاح الدين — أرسل فى سنة ٥٩٩ — وهو بالشام — جنداً من رجالها لحفظ دمياط من الفرنج».

٢ - فى عهد الملك الكامل محمد

وفى أواخر عهد الملك العادل أبى بكر أصاب الحروب الصليبية انقلاب جديد خطير فقد لاحظ الصليبيون أن مصر هى حصن الإسلام القوى وضيعته الغنية ، وأنها مصدر الأمداد القوية الوفيرة من الرجال والميرة والسلاح ، وبفضل هذا كله استطاع صلاح الدين أن ينتصر عليهم انتصاراته الحاسمة ، ويستعيد منهم بيت المقدس والكرك والشوبك وغيرها من عشرات المدن والقرى ؛ لهذا كله قررأيهم على أن يبدأو بمصر ؛ فاذا استولوا عليها فقد سهل عليهم كل شىء ، واستطاعوا فى يسر أن يستعيدوا بيت المقدس ، بل ويملكوا الشام كله .

بدأوا هذا الاتجاه فى سنة ٦١٥ (١٢١٨) والملك العادل يناضلهم فى الشام ؛ وفى مصر ابنه الملك الكامل محمد ينوب عنه فى الحكم .

واتخذ الصليبيون لهذا الأمر عدته ، ووصلتهم الأمداد الوفيرة من ممالك أوربا المختلفة ، فلما تكامل عددهم أبحروا — بقيادة جان دى برين ملك بيت المقدس — من عكا إلى دمياط فى أسطول ضخم كثير العدد يحمل نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف رجل ، ووصلوا إلى شواطىء دمياط ، ونزلوا ببرها الغربى يوم الثلاثاء رابع ربيع الأول من سنة ٦١٥ (يونيو ١٢١٨) ، وكان هذا البر الغربى يسمى جزيرة دمياط وهى تسمية مجازية لأن مياه البحر تحيط به شمالا ، ومياه النيل تحيط به شرقا ؛ كما كان يسمى أيضاً جيزة دمياط ؛ والجيزة فى االلغة الناحية ، أو لعله سمى كذلك لأنه يجاز إليه من دمياط .

وعسكر الصليبيون فى جموعهم الحاشدة بهذا البر الغربى تجاه دمياط وحصنوا معسكرهم ، فحفروا حوله خندقا وأحاطوه بسور وستائر .

وكانت دمياط — كما سبق أن أسلفنا — مدينة حصينة غاية الحصانة تحيط بها الأسوار والقلاع والأبراج القوية الضخمة ، ويحيط بهذه الأسوار الخندق الذى أنشىء فى



الفرنج ينزلون بدمياط فى عهد الملك الكامل

أواخر عهد صلاح الدين. وكان عند مدخل فرع دمياط برج ضخم مشحون بالمقاتلة والسلاسل الحديد المتينة تمتد منه إلى برج مقابل على شاطىء دمياط لمنع سفن العدو من العبور فى النيل والوصول إلى المدينة. وكان هذا البرج هو مفتاح دمياط. لا يمكن للصليبيين الوصول إليها إلا إذا استولوا عليه، ولهذا توفرت جهودهم كلها فى أول الأمر للاستيلاء على هذا البرج المنيع، واستعانوا لتحقيق هذا الهدف ببناء أبراج خشبية عالية أقاموها على سفنهم وتقدموا بها إلى البرج لمحاربة جنده وحاميته ولكن هؤلاء الجند استطاعوا أن يردوهم أكثر من مرة.

ووصلت أخبار نزول الصليبيين إلى بر دمياط الغربى إلى الملك الكامل، فخرج بجيشه متجهاً إلى الشمال، وأرسل الأساطيل إلى دمياط، وأمر الولاة بجمع العربان. ونزل الكامل بمنزلة العادلية قرب دمياط، وعسكر بها. هذا والملك العادل يرسل إليه المدد تلو المدد من الشام ليستعين بها جميعاً فى محنته.

وظل البرج يقاوم ويمانع أربعة أشهر طوالا، وأخيراً بنى الفرنج برجا عاليا ضخما وأقاموه على بطسة كبيرة، وتقدموا به تحت وابل من سهام المصريين إلى أن أسندوا برجهم إلى البرج المدافع، وقاتلوا به قتالا عنيفاً إلى أن استولوا على برج دمياط.

وكان استيلاؤهم على هذا البرج حادثاً خطيراً، لأنها فقد سهل لهم الاستيلاء على المدينة بعد ذلك، ويكفى للدلالة على خطورة هذا الحادث أن يذكر أن الملك العادل عندما سمع بخبره وهو مقيم بمرج الصفر بالشام تأوه تأوهاً شديداً، ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً، ومرض من ساعته، ثم لم يلبث أن مات من حسرته بعد أيام.

وخلص ملك مصر للملك الكامل محمد، فاشتد ثقل العبء الملقى على كتفيه، لأن الصليبيين أقدموا بعد استيلائهم على البرج فحطموا سلاسله لتجوز مراكبهم فى نهر النيل، فاضطر الكامل لإقامة جسر عظيم جنوبى البرج لمنعهم، ولكنهم قاتلوا عليه قتالا شديداً إلى أن قطعوه، ويقال أن الكامل صرف على البرج والجسر فى ذلك الوقت ماينيف على سبعين ألف دينار. ثم لم ييأس، وإنما أمر أن تغرق عدة من السفن فى عرض النيل لتمنع سفن الصليبيين من العبور جنوبا، واحتال الفرنج على هذا الإجراء

الأخير حيلة ماكرة، فقدكان هنالك على البرج الغربي خليج قديم يعرف بالخليج الأزرق، كان يجرى فيه النيل فيصب فى البحر ولكن الرمال طمرته، فأعادوا حفره، وأصعدوا فيه سفنهم حتى وصلت إلى مدينة بورة التى تقابل منزلة العادلية حيث يعسكر الكامل بجيوشه، وبدأت المناوشات بين الجيشين.

كل هذا ودمياط لا زالت آمنة سالمة وسورها يحميها وأبوابها مفتحة، والميرة والأمداد تصل إليها دون انقطاع والنيل لايزال يفصل بينها وبين العدو، والعربان تقض مضاجع الصليبيين فتتخطفهم من معسكراتهم فى الليل، حتى «امتنعوا من الرقاد خوفاً من غاراتهم» وقامت رياح عاصفة فقطعت مراسى مرمة الفرنج (وهى سفينة ضخمة جداً مشحونة بالميرة والسلاح) ويقول عنها المقريزى «وكانت من عجائب الدنيا، فمرت إلى بر المسلمين فأخذوها، فاذا هى مصفحة بالحديد لاتعمل فيها النار، ومساحتها خمسمائة ذراع فكسروها فاذا فيها مسامير زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا».

ولو سارت الأمور سيرها الطبيعى لما وصل الصليبيون إلى دمياط، ولكن البلاء نبت فى معسكر المسلمين نفسه فقد انتهز أحد أمرائهم الكبار ويدعى عماد الدين أحمد ابن المشطوب فرصة موت الملك العادل، واستمال إليه عدداً من قواد الجيش وحاول أن يخلع الكامل ويولى مكانه أخاه الملك الفائز، وعلم الكامل بالمؤامرة فخشى على نفسه، فترك معسكره بالعادلية فى الليل وانسحب جنوباً إلى أشموم طناح، وأصبح الجند بغير سلطان، فتفرقت كلمتهم «وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم ولحقوا بالسلطان» ورحب الفرنج بالفرصة المواتية، ونزلوا إلى البر الشرقى يوم الثلاثاء سادس عشر ذى القعدة دون أن يلقوا أية مقاومة، واستولوا على جميع ما كان فى معسكر المسلمين «وكان شيئاً لايحيط به الوصف»، وعسكروا فى البر الشرقى، وحصنوا معسكرهم كالمعتاد فحفروا حوله خندقاً وبنوا سوراً، وبدأوا يحاصرون دمياط، ولكن أهلها صمدوا للقتال وقاوموا مقاومة مجيدة عنيفة، وخضعوا إبان هذا الحصار لشدائد مريرة، فقلت الأقوات عندهم، وكان بالمدينة — غير أهلها — عشرون ألف مقاتل، فلما طال بهم الحصار أنهكتهم الأمراض وغلت الأسعار حتى بيع رطل السكر بمائة وأربعين ديناراً، والدجاجة بثلاثين، وراوية الماء بأربعين درهماً، واحتال السلطان للاتصال بأهل دمياط

لتشجيعهم وتقوية روحهم المعنوية، فانتدب لذلك رجلا من جنوده يدعى شمائل، فكان يسبح فى الماء بعيداً عن أعين الفرنج حتى يصل إلى أهل دمياط فيعدهم بوصول النجدات.

وطال الحصار بالمدينة ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً، حتى اشتد بهم الضيق وعدمت لديهم الأقوات، وامتلأت الطرقات والمساكن بالموتى، وتسور الفرنج المدينة أخيراً ودخلوها فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان سنة ٦١٦ (نوفمبر ١٢١٩)، فوضعوا السيف فى الناس وأسرفوا فى قتلهم؛ وجعلوا جامع المدينة كنيسة، وانبثوا فى القرى المحيطة، وأخذوا يحصنون المدينة وأسوارها، ليتخذوها قاعدة يتقدمون منها نحو الجنوب.

وعسكر الملك الكامل قبالة طلخا عند مخرج بحر أشموم طناح (البحر الصغير الآن)؛ وشرع الجند يبنون الدور والفنادق والحمامات والأسواق فى هذه المنزلة، (وقد سميت بعد ذلك المنصورة تيمناً بانتصار الكامل)، وكان قد أرسل الرسل إلى ملوك الأيوبيين فى الشام من أخوته وأقاربه يسألهم النجدة والمعونة؛ فوصله فى ذلك الوقت أخوه الملك المعظم عيسى بجيش كبير، فقوى به قلبه، وخاصة أنه سعى بعد وصوله فأنجاه من ورطته بابعاد أخيه الفائز وابن المشطوب إلى الشام، فهدأت الفتنة، ووصلت نجدة أخرى من حماة بقيادة المظفر الثانى ابن أخت الملك الكامل فى جيش كثيف؛ ففرح بوصولها. ثم وصلت نجدة كبرى بقيادة الملك الأشرف موسى أخى الكامل، وبلغت بذلك عدة فرسان المسلمين نحو أربعين ألف فارس، فقويت قلوب المسلمين، وبدأوا يستعدون للمعركة الحاسمة.

وتقدم الصليبيون — بعد تحصين دمياط — وبعد أن وصلتهم أمداد وفيرة العدد نحو الجنوب فى حدهم وحديدهم، ونزلوا قبالة جيش المسلمين شمال بحر أشموم طناح، ولا يفصل بين المعسكرين غير هذا البحر.

واشتد القتال بين الفريقين؛ وأبلى المسلمون بلاء حسناً، فاستولوا على نحو تسع سفن كبيرة من سفن الفرنج التى تحمل إليهم الميرة من دمياط، وأسروا منهم ألفين ومائتين، ثم احتال الكامل فأرسل سفناً من أسطوله بقيادة الأمير بدر الدين بن حسون فى بحر

المحلة ، وهو فرع كان يخرج من النيل قرب بنها الحالية ، ويتصل به ثانية شمالي المنصورة. فحالت هذه السفن بين مراكب الفرنج الآتية من الشمال بالميرة وبين الوصول إلى معسكرهم عند المنصورة . ثم عبر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة هذا إلى الأرض التى يعسكر عليها الفرنج «وحفروا مكاناً عظيما فى النيل ، وكان فى قوة الزيادة ، فركب الماء أكثر تلك الأرض ، وصار حائلا بين الفرنج ومدينة دمياط ، وانحصروا فلم يبق لهم سوى طريق ضيقة ، فأمر السلطان فى الحال بنصب الجسور عند أشموم طناح ، فعبرت العساكر عليها ، وملكت الطريق التى يسلكها الفرنج إلى دمياط إذا أرادوا الوصول اليها ؛ فاضطربوا وضاقت عليهم الأرض » .

وفت ذلك كله فى عضد الفرنج ، واضطربت أحوالهم وبدأوا يفاوضون الكامل ، ويعرضون أن يتركوا دمياط مقابل أن تعاد إليهم القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية والكرك والشوبك وغيرها من المدن الكثيرة التى كان قد استعادها منهم البطل صلاح الدين ، وقبل الكامل أول الأمر أن يسلم لهم هذه المدن جميعاً عدا الكرك والشوبك لمكانتهما الحربية ؛ ولكنهم أصروا على طلباتهم : فلما أحيط بهم من الشمال ، وأصبحوا محاصرين بالمسلمين من كل الجهات ، أدركوا أنهم هزموا ، فهدموا خيامهم ومجانيقهم وألقوا فيها النار ، وهموا بالزحف على المسلمين ومقاتلتهم للعودة إلى دمياط «فحال بينهم وبين ذلك كثرة الوحل والمياه الراكبة على الأرض ، وخشوا من الاقامة لقلة أقواتهم ، فذلوا وسألوا الأمان على أن يتركوا دمياط للمسلمين » دون قيد أو شرط .

وبدأ الكامل يستشير أهله وأصحابه ، فأشار عليه البعض أن يواصل القتال حتى يتم له النصر النهائى ، وأشار البعض الاخر أن يعطى الفرنج الأمان إجابة لطلبهم ، وتغلب الرأى الأخير خوفاً من أن يصل إلى الفرنج مدد جديد فيستأنفون القتال ، واتفق الفريقان على أن يقدم كل منهما رهائن للاخر حتى يتم تسليم دمياط ، فأرسل الفرنج عشرين ملكا من ملوكهم رهائن عند الملك الكامل ، وأرسل الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب وعدداً من قواده . وجلس الكامل مجلساً عظيما لاستقبال هؤلاء الملوك الرهائن ، وحوله أخوته وأهل بيته «وصار فى أبهة وناموس مهاب » ، وخرج قسوس

الفرنج ورهبانهم إلى دمياط : فسلموها للمسلمين تاسع عشرى رجب سنة ٦١٨ ، فلما تم تسليمها بعث الفرنج الصالح نجم الدين ومن معه من الأمراء ، كما أطلق الكامل رهائنه من الملوك ، واتفق الفريقان بعد هذا على هدنة مداها ثمانية أعوام ، وعلى أن يطلق كل منهما من عنده من الأسرى . ودخل الملك الكامل دمياط وفى ركابه أخوته وقواده وعساكره : «وكان يوم دخوله إليها من الأيام المذكورة» وأرسلت البشائر بأخذ دمياط إلى كل البلاد الإسلامية .

وهكذا نزح الصليبيون عن دمياط بعد ان قضوا فيها وعلى شاطئيها الغربى والشرقى ثلاث سنين ، وأربعة أشهر ، وتسعة عشر يوماً .

وتبارى شعراء العصر — كالعادة — فى تمجيد هذا النصر والاشادة به ، وكان أجمل ماقيل فى هذه المناسبة قصيدة الشاعر الكبير شرف الدين بن عنين التى قال فيها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

غداة التقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا

وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا ... إلينا سراعاً بالجهاد وأرقلنا

فما برحت سمر الرماح تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا منا

بدا الموت من زرق الأسنة أحمرا ... فالقوا بأيديهم إلينا ، فأحسنا

وما برح الإحسان منا سجية ... نورثها من صيد آبائنا الابنا

وقد عرفت أسيافنا ورقابهم ... مواقعها منا ، فان عاودوا عدنا

منحناهم منا حياة جديدة ... فعاشوا بأعناق مقلدة منا

ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا ... ولوغا ، ولكنا ملكنا فاسجحنا

٣ ـ فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب

باءت حملة (جان دى برين) بالفشل ، ولكن الصليبيين لم ينسوا مشروعهم الجديد الذى كان يهدف إلى الإستيلاء على مصر ليسهل عليهم تحقيق أملهم ، وهو امتلاك بيت المقدس وأراضى الشام جميعاً .

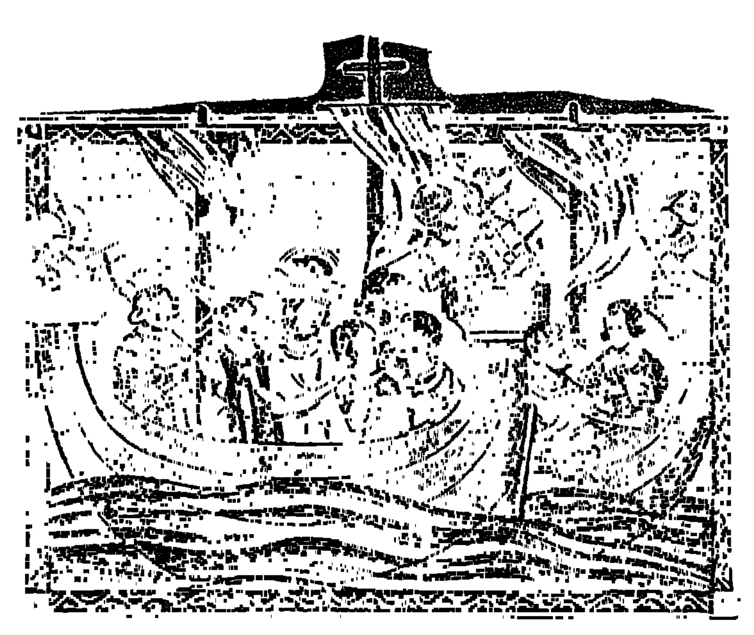
لهذا لم يكد يمضى على الحملة السابقة ثلاثون عاماً حتى أعدوا العدة للانقضاض على دمياط مرة ثالثة . ولم تأت الحملة هذه المرة من سواحل الشام ، وإنما أتت من فرنسا ، ففى ٢٥ أغسطس سنة ١٢٤٨ (٤ جمادى الأولى سنة ٦٤٦) أبحر من مياه فرنسا أسطول ضخم يزيد على ١٨٠٠ سفينة تحمل ثمانين ألف مقاتل ومعهم عدتهم وسلاحهم ومؤونتهم وخيولهم . وكان قائد هذه الحملة الملك القديس لويس التاسع ملك فرنسا .

ومرت هذه الحملة — فى طريقها إلى مصر — بجزيرة قبرص ، فقضت بها بعض الوقت وقد أخطأت فى هذا ، لأنها لو اتخذت طريقها إلى مصر دون تلكأ لفاجأت الجيش المصرى قبل أن يستعد ويتخذ للحرب أهبته .

ثم أقلعت الحملة من قبرص ، ودمياط قبلتها ، ولكن رياحاً عاصفة اعترضتها فى طريقها ، فاضطرت عدداً كبيراً من سفنها — نحو ٧٠ سفينة — إلى الانفصال والجنوح إلى شواطىء الشام .

وكانت علاقات الود والإخاء تربط بين ملوك الأيوبيين — منذ عهد الملك الكامل — وبين ملوك صقلية النورمانديين ، ويقال إن ملك صقلية فى ذلك الوقت — الملك فردريك الثانى — أرسل أحد رجاله — متخفياً فى زى تاجر — إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب — وكان مقيما فى الشام حينذاك — ليبلغه نبأ هذه الحملة كى يستعد لمقابلتها .

وكان الملك الصالح مريضاً مرضاً خطيراً يعوقه عن ركوب فرسه ، غير أنه انزعج لهذا الخبر ، ولم يبال بآلام مرضه ، وأمر أن يحمل فى محفة ، وعاد مسرعاً إلى مصر ، ونزل عند قرية أشموم طناح فى المحرم سنة ٦٤٧ (ابريل ١٢٤٩) وأصدر أوامره فى الحال بالاستعداد.



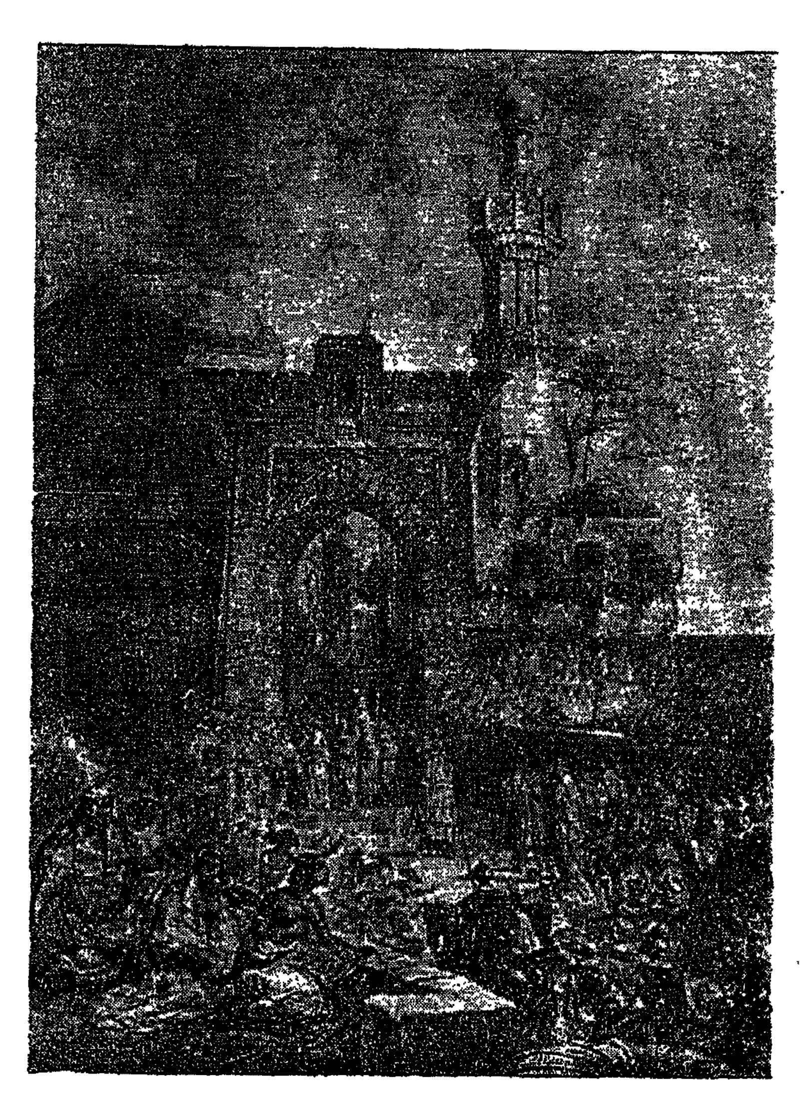
حملة لويس التاسع تغادر فرنسا إلى دمياط

فشحنت دمياط بالاسلحة والأقوات والجنود ، و بعث إلى نائبه فى القاهرة — الأمير حسام الدين بن أبى على — يأمره باعداد سفن الأسطول ففعل وأرسلها إلى دمياط شيئاً بعد شىء، ثم أرسل الملك الصالح الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ على راس جيش كبير ليعسكر فى البر الغربى لدمياط ليكون فى مقابلة الفرنج إذا قدموا .

هذه الحوادث الأولى وحوادث الحملة جميعاً تدل على أن المصريين أفادوا كل الفائدة من الحملة الماضية، كما تدل على أن الصليبيين لم يفيدوا شيئاً من أخطائهم فى الحملة السابقة فقد أدرك المصريون أن حملة جان دى برين قد نزلت أول مانزلت على الشاطىء الغربى لدمياط ، ولذلك أمر الملك الصالح جيشه بأن يعسكر على هذا البر ليمنع نزول الصليبيين عليه . وقد كان السبب الأكبر فى فشل الحملة الأولى أنها نزلت على دمياط وأرادت الوصول إلى القاهرة بالمسير بمحاذاة فرع دمياط فاعترضتها المجارى المائية الكثيرة المتفرعة عن هذا الفرع، وكان يمكنهم أن يتفادوا هذا الخطأ فى محاولتهم الثانية فينزلوا على الاسكندرية ولكنهم لم يفعلوا .

وفى الساعة الثانية من نهار الجمعة لتسع بقين من صفر سنة ٦٤٧ (يونيو ١٢٤٩) وصلت سفن الفرنسيين إلى الشاطىء المصرى وأرست بازاء المسلمين ، فراعهم كثرة الجيوش المصرية على الشاطىء، كما خطف بأبصارهم بريق أسلحة المسلمين. وعلا صهيل خيولهم وزادت جلبة جندهم فأفزع الفرنسيين وهم لايزالون فى سفنهم، يصف (جوانفيل) — مؤرخ الحملة وأحد قوادها — الرهبة التى ملكت على الفرنسيين أنفسهم عند رؤية الجيش المصرى فيقول : «وصل الملك أمام دمياط ، ووجدنا هناك كل جيوش السلطان تقف على الشاطىء: كتائب جميلة تسر الناظرين ، ذلك أن أسلحة السلطان قد صنعت من ذهب، فكانت الشمس تشرق على هذه الأسلحة فتزيدها بريقاً ولمعاناً، وكانت الحلية التى يؤتون بصنوجهم وأبواقهم الشرقية تدخل الرعب فى أفئدة السامعين » .

وفى اليوم التالى استطاع الفرنسيون أن ينزلوا الجند إلى البر — بعيداً عن معسكر المصريين — وبدأت المناوشات بين الجيشين .



جنود لويس التاسع يدخلون دمياط ويحيلون جامعها كنيسة

وهكذا بدأت المعركة : الجيش المصرى كبير العدد وافر العدة — كما وصفه الفرنسيون أنفسهم — ودمياط — على الشاطىء الشرقى مدينة مسورة حصينة قوية قد شحنت بالجند والأقوات والأسلحة لأن السلطان لم ينس أن هزيمتها السابقة إنما كان سببها انعدام الأقوات بعد طول الحصار . فلو أن الامور سارت سيراً طبيعياً لاستطاع المصريون أن يهزموا هذه الحملة — رغم قوتها وكثرة جندها — ويردوها عن مصر فى يسر وسهولة . ولكن الحوادث تطورت تطوراً آخر .

فكما أن مؤامرة ابن المشطوب كادت تنزل الهزيمة بالجيش المصرى وتوقع الفرقة والاضطراب بين جنوده فى عهد الكامل ، كذلك جد فى حوادث هذه الحملة حادث خطير كاد ينتهى بها إلى نفس النتيجة .

كان السلطان الملك الصالح نجم الدين مريضاً — كما ذكرنا — ومقيما فى أشموم طناح ، وقد اشتد به المرض حتى أصبح على شفا حفرة من الموت ، فلما وصلت السفن الفرنسية إلى شاطىء دمياط أطلق الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلى السلطان ، وتعددت رسائله دون أن يتلقى رداً ، فأدرك أن السلطان قد مات ، فانتظر حتى وافى الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطىء الغربى إلى دمياط ، ثم تركها وسار جنوباً متجهاً إلى معسكر السلطان عند أشموم طناح ، وأعمته العجلة فلم يحطم الجسر الذى كان يصل بين الشاطئين الشرقى والغربى فتركه كما هو .

ونظر أهالى دمياط فوجدوا الجيش الذى أتى لحمايتهم قد غادر المدينة ، فخافوا على أرواحهم وخرجوا فى الليل تاركين مدينتهم وأموالهم وديارهم « ولحقوا بالعسكر فى أشموم طناح وهم حفاة عرايا جياع حيارى بمن معهم من النساء والأولاد ، وفروا هاربين إلى القاهرة فأخذ منهم قطاع الطرق ما عليهم من الثياب وتركوهم عرايا » .

ومع أن السلطان كان فى أشد حالات المرض فقد غضب على فخر الدين ومن كان معه من القواد غضباً شديداً ، وأنبه على فعلته ، وأمر بشنق خمسين أميراً من أمراء الكنانية الذين كانوا يتولون الدفاع عن المدينة ، وكاد يأمر بقتل فخر الدين نفسه غير أن الوقت كان حرجاً فكتم غيظه إلى أن تنكشف الغمة . وأصبح الفرنسيون فوجدوا معسكر

المصريين خلاء فظنوها مكيدة ، فأرسلوا كشافتهم يستطلعون ، ولشدما كانت دهشتهم عندما وجدوا الجسر قائماً والمدينة خالية تماماً من الجنود والأهلين ، فعبر الجيش الفرنسي إليها واستولى عليها دون عناء ، وفرح بها الفرح كله فقد كانت مشحونة كما ذكرنا بالعتاد والمؤونة .

كان الملك لويس يستطيع أن يتقدم فى هذه اللحظة نحو الجنوب قبل أن يفيق المصريون من الارتباك الذى حل بهم ، ولو أنه اتبع هذه الخطة لكتب له النصر . غير أنه تلكأ فى دمياط مدة تقرب من الستة شهور ينتظر وصول بقية سفنه التى جنحت بها الريح نحو شواطىء سوريا ، هذه المدة كانت كافية تماماً لأن يتم فيها المصريون استعدادهم ويستعيدوا نشاطهم ويجمعوا صفوفهم .

ولما وصلت السفن الشاردة دعى الملك لويس التاسع قواده للتشاور ولاختيار الطريق الذى يسلكونه ، أيتجهون نحو الاسكندرية أم يسيرون قدماً إلى القاهرة ؟ وأشار الكونت بيتر البريطانى (Count Peter of Brittany) ومعظم قواد الجيش بالمسير إلى الاسكندرية والاستيلاء عليها أولا ، وكانت حجتهم معقولة وصحيحة من الناحية الحربية ، وتتلخص فى أن الاسكندرية كميناء تفضل دمياط فى كثير ، فهى أصلح لإيواء سفنهم ، وإليها يستطيع أسطولهم أن يصل بالميرة من بلادهم فى وقت قصير وجهد قليل . غير أن الكونت أرتوا (Artois) — أخو الملك لويس — عارض هذا الرأى ونصح الملك بالاتجاه مباشرة نحو القاهرة للإستيلاء عليها ، وحجته فى ذلك أن القاهرة هى عاصمة الديار المصرية كلها ، فالاستيلاء عليها يستتبع حتما الاستيلاء على مصر كلها ، وأضاف إلى هذا قوله : « إذا أنت أردت قتل الأفعى فاضربها على رأسها » ؟ واحتدم النقاش ، وانتهى باعراض الملك عن رأى قواده ، وأخذه برأى أخيه ، وتقرر بذلك مسير الجيش الفرنسي جنوباً نحو القاهرة ، فكان هذا القرار حلقة جديدة فى سلسلة الأخطاء التى انتهت بفشل الحملة .

أما المعسكر المصرى فقد اضطرب اضطراباً شديداً لإنسحاب حامية دمياط وفرار أهلها ، ووقوعها فى يد العدو ، وكان السلطان الملك الصالح معسكراً بأشموم طناح

والمرض يشتد به يوماً بعد يوم، ولكنه مع هذا لم يفقد شجاعته ، بل قرر أن يتراجع مع جيشه جنوباً إلى مدينة المنصورة لأنها تمتاز بموقع حصين ، فالنيل يحميها غرباً، وبحر أشموم طناح يفصل بينها وبين قوى الفرنسيين فى الشمال ، وبدأ الجند المصريون فى تحصين المنصورة فأصلحوا السور الذى كان يحيط بها وستروه بالستائر «وقدمت الشوانى المصرية بالعدد الكاملة والرجالة ، وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد من كل النواحى ، ووصلت عربان كثيرة جداً ، وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم» ؛ وأخذ هؤلاء المجاهدون والعربان يهاجمون معسكرات الفرنسيين حتى أقضوا مضاجعهم . فلم يكن يمر يوم دون أن يعودوا بعدد من الأسرى.

وفى ليلة الأثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧ (٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩) مات السلطان الملك الصالح فكانت الطامة الكبرى ، لأن الجند لو علموا بموته لتفرق شملهم وضعفت روحهم المعنوية ، ولكن القدر هيأ لمصر فى تلك الساعة العصيبة امرأة حازمة مدبرة هى شجر الدر زوجة الملك الصالح ، فقد أخفت عن الجميع خبر موت السلطان وأمرت بحمل جثته سراً فى حراقة إلى قلعة الروضة ، وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش ، وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلى حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه ، كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلى نفس الغرفة وتخرج ممهورة بامضاء السلطان وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه .

وأرسلت الرسل إلى الملك المعظم تورانشاه بن الصالح — وكان مقيما فى حصن كيفا — لاستدعائه إلى مصر ، وبهذه الإجراءات السريعة الحكيمة أنقذت مصر من أزمتها ، وسارت الأمور سيراً طبيعياً .

ووصلت أخبار موت السلطان — رغم كتمانها — إلى الفرنسيين فى دمياط ، فانتهزوا الفرصة وبدأوا زحفهم نحو الجنوب حتى وصلوا إلى المنصورة ، فعسكروا شمال بحر أشموم ، وأصبح هذا البحر حاجزاً بين معسكرهم ومعسكر المسلمين ، وبدأ كل من الفريقين يستعد للمعركة الحاسمة .

أما الفرنج فقد بدأوا يحصنون معسكرهم فحفروا حوله — كعادتهم — خندقاً وأقاموا سوراً وستروه بالستائر ، ونصبوا المجانيق ، وأتت شوانيهم فوقفت بازائهم فى النيل . وأما المصريون فكانوا مطمئنين إلى مدينتهم وحصانة موقعهم ، فأخذوا يناوشون الفرنج ويتحيلون فى اختطافهم وأسرهم ، وكانوا يفتنون فى مناوشاتهم ويأتون فيها بكل طريف ، وقد روى بعض المؤرخين أن جندياً مصرياً قور بطيخة وحملها على رأسه وغطس فى الماء حتى حاذى الفرنج ، فظنه بعضهم بطيخة ونزل لأخذها ، فشطره المصرى بسيفه وحمله إلى معسكر المسلمين.

ورأى ملك الفرنسيين أنه لا يستطيع الغلبة على المصريين إلا إذا التحم معهم فى معركة ولا سبيل إلى هذا وبحر أشموم يفصل بينه وبينهم ، ففكر فى بناء جسر على هذا البحر ليعبر عليه جنوده إلى البر الآخر ، وصدرت الأوامر باقامة هذا الجسر ، ولكن الفرنسيين لم يكادوا يتمون بضعة أمتار من الجسر حتى تساقط عليهم وابل من قذائف المسلمين ردهم على أعقابهم ، فرأى الملك أن يبنى برجين زودهما بالقذائف والقاذفين لحماية العمال الذين يعملون فى البحر ، وعاد الفرنج إلى عملهم يبغون إتمام الجسر للعبور عليه . ولكن المسلمين استطاعوا بمهارتهم الحربية وخطتهم الموفقة أن يفسدوا على اعدائهم عملهم ، فكان الفرنج كلما أتموا من جسرهم متراً هدم المسلمون أمتاراً أمامه فى شاطئهم المقابل ، فاتسع المجرى من جديد ، يقول جوانفيل — مؤرخ الحملة وأحد فرسانها : « فكانوا يفسدون علينا فى يوم واحد ما كنا ننجزه فى أسابيع ثلاثة » .

وإلى هذا كله استعد المصريون بمجانيقهم ومقاليعهم ، فكانوا يمطرون الفرنسيين وأبراجهم بقذائف من النار اليونانية التى أنزلت الرعب فى أفئدتهم ونالت من شجاعتهم كل منال ، وليس أورع من وصف جوانفيل لهذا الذعر الذى استولى على الفرنسيين أمام هذا السلاح الخطر حين يقول :

وقال ولتر دى كوريل (Walter de Cureil) : «أيها السادة ، نحن فى خطر داهم لأن العدو لو صوب النار نحو أبراجنا وبقينا نحن فى أماكننا لأتانا الموت من كل مكان ، ولو أننا غادرنا مراكزنا التى استولينا عليها للحقنا العار ، فلا منقذ لنا من هذا الخطر

الداهم إلاالله . . . فنصيحتى اليكم أن نخر سجدا — كلما صوبوا هذه النار حولنا — لنبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن ينجينا من هذا الخطر» ؛ ولم يكن الملك لويس نفسه أقل جزعاً من رجاله ، يقول جوانفيل واصفاً الرعب الذى استحوذ على الملك : «وكانت النار ترسل فى انطلاقها الأضواء الباهرة التى تملأ رحاب المعسكر فيبدو وكأننا فى وضح النهار ، ولقد صوب العدو النار نحونا هذه الليلة ثلاث مرات ، كما أطلقوها من قسيهم أربع مرات ، وكان الملك القديس كلما سمع أن النار الأغريقية قد صوبت نحونا انتصب واقفاً على سريره ورفع يديه إلى السماء وابتدأ الصلاة وعيونه مخضلة بالدموع وهو يقول : أيها الإله الطيب أحفظ لى شعبى» .

يتضح من هذه الحوادث والأقوال أن الغلبة كانت للمصريين فى أول المعركة ولو سارت الأمور سيراً طبيعياً لتم لهم النصر النهائى ، ولكن خائناً من البدو دل الفرنسيين فى ذلك الحين على مخاضة فى بحر أشموم — يستطيع الفرسان عبورها على خيولهم — نظير مبلغ من المال .

وفرح الفرنسيون بهذا الكشف ، ووضع الملك لويس خطة جديدة للمعركة ؛ وتتلخص هذه الخطة فى أن يعبر الكونت أرتوا بفرقة الفرسان من هذه المخاضة ، فاذا وصل إلى الشاطىء الذى يعسكر فيه المسلمون اشتبك معهم فى قتال مؤقت ليشغلهم عن مهاجمة الفرنسيين الذين يقيمون الجسر إلى أن يتموه ، فاذا تم بناء الجسر عبر عليه لويس ببقية جيشه ، وانضم إلى فرسان الكونت أرتوا ، وانقضوا جميعاً على جيش المسلمين.

كانت الخطة كما ترى محكمة وخطيرة ، ولو أنها نفذت كما وضعت لقضى الفرنسيون على الجيش المصرى قضاء مبرماً ، ولكن تهور الكونت أرتوا كان السبب فى فشلها .

عبر أرتوا بفرسانه هذه المخاضة فى الرابع أو الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ (فبراير سنة ١٢٥٠) وانقض على معسكر المسلمين فجأة فشتت شملهم لأنهم لم يكونوا مستعدين للقتال ، إذ لم يخطر على بالهم أن يهاجموا من هذه الناحية ، وكان قائد الجيش الأمير فخر الدين فى الحمام عندما علم بهجوم الفرنج على معسكره ، فخرج مشدوها ، وركب فرسه دون أن يتخذ للدفاع عدته ؛ فدهمه فرسان الفرنج ، فتفرق عنه جنده ، وتكاثرت

عليه الرماح والسيوف حتى خر صريعاً ، وانقلبت بهذا هزيمة الفرنسيين إلى نصر باهر ، وفرح أرتوا بهذا النصر السريع، وملكه حماس الشباب فلم يقف عند نهاية الجسر لحماية العاملين فيه - كما أمره أخوه - وإنما اندفع بفرسانه إلى المنصورة ودخلها ، وتقدم حتى وصل إلى قصر السلطان بها . وكاد النصر النهائي يتم للفرنسيين لولا أن صمدت لهم فرقة المماليك البحرية بقيادة ركن الدين بيبرس ، وحملت على الفرنسيين حملة عنيفة حتى ردتهم عن القصر ، فلما فروا راجعين تعقبتهم بالسيوف والدبابيس ، وأقام الأهالى المتاريس فى الطرقات ، واشتبك الفريقان فى قتال عنيف فى شوارع المدينة وأزقتها ، واتخذ السكان حصوناً من منازلهم يلقون من نوافذها بالقذائف والحجارة على الفرنسيين. وانتهت المعركة أخيراً بالقضاء على فرقة الفرسان قضاء مبرماً ، وكان فى مقدمة الضحايا الكونت أرتوا قائدها .

وكان الفرنسيون - أثناء هذه المعركة - يجدون ويبذلون كل الجهد لإتمام الجسر حتى يتمكنوا من العبور عليه والإنضمام إلى فرسانهم ، ولكنهم لم يكادوا يشرفون على إتمامه، حتى وصلتهم أخبار الهزيمة التى نزلت بجنودهم ، فنال هذا الخبر من شجاعتهم وفقدوا قوتهم المعنوية ، فكانوا يلقون بأنفسهم إلى النيل يبغون العودة إلى معسكرهم . وبهذه الهزيمة عاد الفريقان إلى ما كانا عليه. كل منهما على شاطىء ، والبحر الصغير يفصل بينهما .

وبعد أيام قليلة وصل الملك المعظم تورانشاه إلى مصر، واستقر فى قصر السلطنة بالمنصورة يوم الثلاثاء تاسع عشر ذى القعدة سنة ٦٤٧ (فبراير ١٢٥٠). وفرح المصريون بسلطانهم الجديد وبدأوا يستعيدون ثقتهم بأنفسهم .

ولجأ تورانشاه إلى الحيلة التى سبق أن لجأ إليها المصريون فى عهد جده الملك الكامل عندما نزلت بنفس المكان جيوش جان دى برين ، فأمر بأن تصنع سفن بالمنصورة وحملت هذه السفن مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة حيث أعيد تركيبها ، وملأت بالمحاربين وسارت شمالا ، فلما وفدت سفن الفرنج تحمل الميرة من دمياط خرجت عليها هذه السفن ، « فأخذت مراكب الفرنج أخذاً وبيلا - وكانت اثنتين وخمسين مركباً -

وقتل منها وأسر نحو ألف افرنجى ، وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات ، وحملت الأسرى إلى العسكر ، فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج ، ووقع الغلاء عندهم وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب» .

واشتدت الضائقة بالفرنسيين لانقطاع الميرة من دمياط ، فأرسل الملك لويس إلى السلطان يطلب الصلح ويعرض عليه أن يتنازل عن دمياط مقابل بيت المقدس ، ولكن السلطان رفض هذا الطلب ، فلم يجد لويس بداً من الاستمرار فى المقاومة حتى يستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، فأشعل النار فى أسلحته وعتاده ، ورحل بجيشه — ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم سنة ٦٤٨ (ابريل ١٢٥٠) — متجهاً إلى دمياط ، ولم يكد يصل إلى فارسكور حتى كانت جيوش المصريين قد لحقت به وانقضت على جيشه انقضاض الصاعقة فقضت على معظمه ، حتى قيل إن من قتل من فرسان الفرنسيين كان أكثر من عشرة آلاف ، كما أسر من الخيالة والرجالة والصناع ما يناهز مائة الف ؛ وارتقى الملك لويس وأمراء جيشه تلا هناك وسألوا الأمان فأمنوا ، وأسر لويس وقواده وحمل إلى المنصورة حيث سجن بدار ابن لقمان التى لا تزال بقاياها قائمة حتى اليوم ، ووكل بحراسته الطواشى صبيح .

ولم يكن المعظم تورانشاه كأبيه ثباتاً واتزاناً وحكمة ، بل كان شاباً أهوج ، فلم يقدر لزوج أبيه شجر الدر تدبيرها ، ولا للمماليك البحرية جهدهم ، بل أخذ يهدد شجر الدر ويطالبها بمال أبيه ، كما أبعد مماليك أبيه ، وقرب اليه حاشيته التى وصلت معه من كيفا وصار إذا سكر جمع الشمع وضرب رؤوسها بسيفه حتى تنقطع ويقول : «هكذا أفعل بالبحرية » ، فتآمر عليه هؤلاء المماليك البحرية واقتحموا عليه البرج الخشبى الذى كان يقيم به فى فارسكور ، فأدرك الشرفى عيونهم ، وصعد إلى أعلا البرج ، فرموه بالنشاب ، وأطلقوا النار فى البرج ، فألقى بنفسه من أعلاه وجرى نحو النيل فلحقوا به وقتلوه ؛ وكان ذلك فى التاسع والعشرين من المحرم سنة ٦٤٨ (مايو ١٢٥٠) .

وهكذا كاد المصريون يفقدون بهذه الفعلة النصر الباهر الذى أحرزوه ولم يمض عليه غير خمسة وعشرين يوما ، ولكن المماليك سرعان ما تداركوا الموقف فأجمعوا ، على



الملك لويس فى الأسر بعد هزيمته

إقامة شجر الدر ملكة على مصر ، فكان حدثاً فذاً فى تاريخ العالم الإسلامى كله ؛ كما عينوا الأمير عز الدين أيبك قائداً أعلى للجيش .

و بدأت المفاوضات بين الملك لويس و بين المصريين ، وتولاها عنهم الأمير حسام الدين بن أبى على — نائب السلطنة فى عهد الملك الصالح — وتم الاتفاق أخيراً على إطلاق سراح الملك وجميع الأسرى على أن يخلوا دمياط وأن يدفعوا أربعمائة ألف دينار فدية للملك ، يدفعون نصفها قبل أن يطلق سراحه والنصف الآخر بعد وصولهم إلى عكا . وجمعت الملكة — وكانت مقيمة فى دمياط — نصف المبلغ المطلوب ، فأطلق المصريون سراح الملك . ودخل المسلمون ثانية إلى دمياط ، ورفعوا عليها العلم المصرى يوم الجمعة الثالث من صفر ، بعد أن ظلت فى أيدى الفرنج أحد عشر شهراً وتسعة أيام .

وهكذا أقلعت فلول الحملة إلى عكا بعد أن ودعها شاعر مصر جمال الدين بن مطروح بقصيدته المشهورة التى يقول فيها :

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال نصح عن قؤول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصراً تبتغى ملكها	تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم	ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم	بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهم	إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها	لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضيا	فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح

دمياط فى العصر المملوكى:

١ - تخريب مدينة دمياط

وتتابعت الحوادث وعرش مصر مثار نزاع عنيف بين الأيوبيين والمماليك، فخشى المماليك أن ينتهز الفرنج فرصة هذا النزاع فينقضوا على دمياط ثانية ، فاتفقوا على تخريبها، وأرسلوا إليها فرقة من الحجارين والفعلة، «فوقع الهدم فى أسوارها يوم الاثنين الثامن عشر من شعبان سنة ٦٤٨ حتى خربت كلها ومحيت آثارها ولم يبق منها سوى الجامع». وهكذا كانت حملة لويس شؤماً على دمياط، ففى أوائلها غادرها أهلوها جميعاً، وفى أعقابها — وبعد نحو ستة أشهر من خروج الفرنسيين — هدمت المدينة جميعها بأسوارها وقلاعها ومنازلها وقصورها، ولم يبق منها — كما يذكر المؤرخون — سوى جامعها وهو الجامع المهدم القديم الذى يعرف حتى الآن فى دمياط باسم جامع أبى المعاطى القديم أو جامع الفتح.

٢ - قيام دمياط الجديدة

ويقول المقريزى أن بعض فقراء الناس سكنوا بعد ذلك فى أخصاص على النيل قبلى المدينة الجديدة ، وسموا هذا المكان (المنشية)، ولعل هذا هو الحى المعروف حتى اليوم فى دمياط بهذا الاسم .

ولم تلبث هذه المنشية حتى كبرت ونمت وأصبحت — كما يقول المقريزى — بلدة كبيرة ذات أسواق وحمامات وجوامع ومدارس ومساجد ، ودورها تشرف على النيل الأعظم ومن ورائها البساتين ، وهى أحسن بلاد الله منظراً، تلك هى دمياط الجديدة ، فما قصتها فى العصور التالية ؟

٣ ـ دمياط فى عهدي المعز أيبك والمظفر قطز

ويبدو أن هذا النمو كان سريعاً ، فموقع دمياط موقع ممتاز من الناحيتين الجغرافية والاستراتيجية ، فهو يتطلب بالضرورة أن تقوم فيه مدينة ، ومدينة كبيرة ؛ يؤيد رأينا هذا الأخبار المتناثرة عن اهتمام سلاطين المماليك الأول بدمياط الجديدة فى السنوات التالية مباشرة لهدم المدينة القديمة .

هذه الأخبار تروى أن الملك المعز أيبك — وهو الذى ولى عرش مصر بعد شجر الدر — قد أقطع دمياط فى سنة ٦٥٢ — أى بعد هدم المدينة القديمة بأربع سنوات فقط — إلى الأمير علاء الدين أيد غدى العزيزى ، ثم تنص على أن ارتفاعها — أى إيراداتها — كان يومئذ ثلاثين ألف دينا .

وتروى هذه الأخبار أيضاً أن السلطان قطز الذى ولى بعد المعز أيبك قد أرسل فى سنة ٦٥٧ (١٢٥٩) المنصورين أيبك وأخاه وأمه إلى دمياط ، واعتقلهم فى برج عمره هناك ، وسماه برج السلسلة ، وقد يفهم من هذا الخبر لأول وهلة أن قطز بنى فى دمياط برجا جديداً ، ولكن تسمية هذا البرج ببرج السلسلة تجعلنا نجزم بأنه هو نفسه برج السلسلة القديم ، وأن المماليك الذين هدموا دمياط قد أبقوا هذا البرج ، وأن الذى فعله قطز إنما هو تعمير البرج ، أى ترميمه وإصلاحه .

٤ ـ في عهد الظاهر بيبرس

وقتل قطز بعد انتصاره على التتار فى وقعة عين جالوت ، وولى عرش مصر الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، ويعتبر بيبرس المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر ، فقد طالت مدة حكمه ، وقد بذل الجهود القوية للتمكين لهذه الدولة ، ومن وسائله لهذا : العناية الفائقة بتحصين مصر وثغورها ، وقد نالت دمياط نصيبها الموفور من هذه العناية .

أدرك بيبرس أن دمياط الجديدة لا تحميها أسوار أو حصون ، كما أدرك أن برج السلسلة مع قوته ومناعته قد يقع فى أيدى العدو ، ولهذا لجأ إلى طريقة فعالة لحماية مدخل النيل عند دمياط ، ففى السنة الثانية من حكمه وهى سنة ٦٥٩ (١٢٦١) « أمر بردم فم بحر دمياط ، فخرج جماعة الحجارين وألقوا فيه القرابيص حتى يضيق وتمتنع السفن الكبار من دخوله » .

ثم لاحظ بيبرس أن العناية بالأساطيل قد فترت بعد خروج الفرنسيين من مصر ؛ وثغور مصر — وخاصة دمياط والأسكندرية — لا يمكن أن يحميها إلا الأساطيل ، « فأنشأ عدة شوان بثغرى دمياط والأسكندرية ، ونزل بنفسه إلى دار الصناعة ، ورتب ما يجب ترتيبه ، وتكامل عنده ببر مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد ونحوها » .

وفى شوال سنة ٦٦١ خرج بيبرس وزار الأسكندرية وأشرف على أسوارها وحصونها ، وفى السنة التالية ٦٦٢ (١٢٦٤) خرج إلى دمياط فزارها ، وأمر بالعناية بأبراجها وأسطولها ، وأقام بها — كما أقام بغيرها من الثغور — حامية كبيرة العدد للدفاع عنها .

واستعادت دمياط مكانتها شيئاً فشيئاً ، وعاد إليها أسطولها ، وكان مقدم أسطول دمياط — أى قائده أو رئيسه — واحداً من كبار رؤساء الأسطول المصرى العام ، ومن دمياط بدأت تخرج الغارات البحرية — كما كان العهد فى العصرين الفاطمى والأيوبى — فى عهد بيبرس ، وفى سنة ٦٦٩ (١٢٧٠) خرج الأسطول المصرى من دمياط يريد غزو جزيرة قبرص ، ولكنه لم يوفق ، وأسر كثير من جنده وقواده — ومن بينهم مقدم أسطول دمياط — وبقوا فى الأسر إلى أن تحيل بيبرس فى استنقاذهم فى سنة ٦٧٣ ؛ وعنى بيبرس بشؤون دمياط المدنية عنايته بشؤونها الحربية ، فأمر بعمارة الجسر (الطريق الزراعى) الذى يصل بينها وبين القاهرة .

٥ ـ دمياط فى أواخر القرن السابع الهجرى

الشيخ فاتح الأسمر

وظلت دمياط الحديدة تنمو شيئاً فشيئاً ، وقصدها العلماء والصوفية من كل حدب وخرج علماؤها إلى الأقطار ، فمن وفد عليها فى أواخر القرن السابع الهجرى(١٣م) الشيخ فاتح بن عثمان الأسمر التكرورى ، قدم إليها من مراكش حوالى سنة ٦٧٨هـ ــ أى بعد إنشاء المدينة الحديدة بنحو خمس وعشرين سنة ــ فأقام بها مدة ، ثم نزح عنها إلى تونة فلبث بها سبع سنين ، ثم عاد إلى دمياط فاقام فى جامعها القديم الذى بقى بعد هدم المدينة القديمة ، وجعل مقره فى وكر بأسفل منارته . وكان هذا الجامع ــ منذ هدمت دمياط ــ مهدما مهملا لايفتح إلا فى يوم الجمعة ، فاعتنى به الشيخ فاتح ، ورمم جدرانه ، ونظفه بنفسه حتى طرد الوطواط الذى كان يقيم بسقوفه ، وساق الماء إلى صهاريجه ، وبلط صحنه ، وسبك سطحه بالجبس ، ورتب فيه إماما يصلى بالناس الصلوات الخمس ، وأقام هو فى بيت الخطابة مواظباً على قراءة الأوراد وتلاوة القرآن ، وكان يقول : « لو علمت بدمياط مكاناً أفضل من الجامع لأقمت به ، ولو علمت فى الأرض بلداً يكون فيه الفقير أخمل من دمياط لرحلت إليه وأقمت به » ؛ وكان هذا الشيخ على خلق عظيم ، فكان يحب الفقر ويتواضع مع الفقراء ، ويتعاظم على العظماء والأغنياء ، وإذا اجتمع عنده الناس قدم الفقير على الغنى ، وإذا مضى الفقير من عنده سار معه وشيعه عدة خطوات وهو حاف ، ووقف ينظره حتى يتوارى عنه ، وكان يكرم الأيتام ويشفق على الضعفاء والأرامل ، ويبذل شفاعته فى قضاء حوائج الخاص والعام من غير أن يمل ولايتبرم بكثرة ذلك . تزوج فى آخر حياته بامرأتين ، وكان يقرأ فى المصحف ويطالع الكتب ، وإنما لم يره أحد يخط بيده شيئاً . توفى ليلة الثامن من شهر ربيع الآخر سنة ٦٩٥ (فبراير ١٢٩٦) ، وخلف ولدين ليس لهما قوت ليلة ، وعليه دين قدره ألفا درهم ، ودفن فى قبره بجوار الجامع القديم .

ومنذ ذلك الحين عرف ذلك الجامع بجامع الفتح ، وهو تحريف للفظ فاتح ــ اسم الشيخ ــ

ثم ظن الناس تحريجاً من هذا الاسم المحرف أن هذا الجامع بنى زمن الفتح الإسلامى ، وهو ظن خاطىء يعوزه الدليل التاريخى المادى ، وينفيه ما ذكره المقريزى من أنه لما زار دمياط فى أوائل القرن التاسع الهجرى شاهد بنفسه نقشاً بالقلم الكوفى على باب هذا الجامع يثبت أنه عمر بعد سنة خمسمائة من الهجرة ، أى أنه يرجع إلى العصر الفاطمى ، وهو قول تؤيده الدراسات الأثرية للنقوش والكتابات والزخارف الخشبية التى كانت تزين جدران هذا الجامع حتى وقت قريب ، والتى نقلت إلى دار الآثار العربية بالقاهرة ، فهذه النقوش والكتابات جميعاً من الطراز الفاطمى .

وهذا الجامع يعرف الآن أيضاً باسم جامع أبى المعاطى القديم ، كما يعرف ضريح الشيخ فاتح باسم جامع أبى المعاطى الجديد ، نسبة للشيخ فاتح : فقد عرف الرجل — لكثرة عطائه — بهذه الكنية (أبو المعاطى) ، ولقد غلبت هذه الكنية على الشيخ واسمه ، فأهل دمياط الآن لايعرفون من هو فاتح ، وإنما يعرفون تماماً من هو (سيدى أبو المعاطى) .

٦ ـ دمياط فى القرن الثامن الهجرى

وصف ابن بطوطة لها

وبعد نحو خمس وسبعين سنة من هدم دمياط القديمة كانت دمياط الجديدة قد نمت واكتمل نموها ، وامتدت رحابها ، وكثرت مبانيها ، ودبت الحياة فى أرجائها ، فقد زارها الرحالة المشهور ابن بطوطة فى سنة ٧٢٥ (١٣٢٥) ووصفها وصفا رائعا ، فقال إنها : « مدينة فسيحة الأقطار ، متنوعة الثمار ، عجيبة الترتيب ، آخذة من كل حسن بنصيب » ، ووصف منازلها بقوله : « ومدينة دمياط على شاطىء النيل ، وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء ، وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها إلى النيل » .

وقد عرفت دمياط — لأهميتها — في ذلك العهد نظام جوازات السفر : فقد ذكر ابن بطوطة أنه « إذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج عنها إلا بطابع الوالي ، فمن كان من الناس معتبراً طبع له في قطعة كاغد يستظهر به لحراس بابها ، وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به » .

وهذا النص هام من ناحية أخرى ، فهو ينص على أن المدينة كان لها باب عليه حراس ، ولا يمكن أن يكون للمدينة باب إلا إذا كان لها سور ، فهل بني حول المدينة الجديدة سور ؟ ومن الذي بناه ومتى بناه ؟ هذه أسئلة لا نجد لها جواباً عند مؤرخي العصر المملوكي .

وقد زار ابن بطوطة معالم المدينة المشهورة في ذلك الحين ، ووصفها في رحلته ، فما زاره البرزخ ، قال : « وبخارجها جزيرة بين البحرين والنيل ، تسمى البرزخ ، (وهي رأس البر الحالية) ، بها مسجد وزاوية ، لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل ، وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الأخيار : قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكراً » .

وهذا الوصف يعطينا أيضاً صورة واضحة للحياة العلمية الدينية التي كانت مزدهرة في المدينة في ذلك الحين ، والتي لا تزال دمياط تحتفظ بها وتشتهر حتى اليوم .

وزار ابن بطوطة — فيما زار أثناء مقامه بالمدينة — زاوية الشيخ جمال الدين الساوي ، وقال إنه : « قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية (أو القلندرية) ، وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم » .

والشيخ جمال الدين الساوي هو غير جمال الدين شيخه المدفون بدمياط أيضاً — كما يظن البعض — ، فابن شبحة — كما أرجح — مجاهد من الذين جاهدوا ضد حملة لويس ، وقد امتد به العمر إلى عصر الظاهر بيبرس .

وزار ابن بطوطة ضريح شطا ، قال : « وبخارج دمياط المزار المعروف بشطا ، وهو ظاهر البركة ، يقصده أهل الديار المصرية ، وله أيام في السنة معلومة لذلك .

وكانت البساتين تحيط بدمياط ، وخاصة فى قرية المنية التى لاتزال تعرف بهذا الاسم حتى الآن ، وقد زارها ابن بطوطة ووصفها بقوله : «وبخارجها أيضاً بين بساتينها موضع يعرف بالمنية ، فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان ، قصدت زاويته وبت عنده»

وذكر ابن بطوطة أيضاً أن والى دمياط — وقت مقامه بها — كان يسمى المحسنى ، كما ذكر أنه كان من ذوى الإحسان والفضل ، وأنه بنى بدمياط مدرسة على شاطئ النيل ، وقد أقام ابن بطوطة بهذه المدرسة طيلة الأيام التى قضاها بدمياط . وقد غادر ابن بطوطة دمياط إلى فارسكور دون أن يعلم الوالى برحيله ، فأرسل وراءه فارساً من رجاله قدم له هبة مالية يستعين بها على سفره .

هذا مجمل وصف ابن بطوطة لدمياط وضواحيها فى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى (١٤ م) ، وهو وصف قيم نادر لأنه يبين فى وضوح كيف نمت المدينة وازدهرت واتسعت أطرافها ، وكثرت مبانيها ودورها ، ولأنه ينص على أن بيوتها كانت تطل فى معظمها على النيل ، وعلى كثرة مابها من مدارس وزوايا ، وعلى ازدهار الحياة العلمية والدينية بها ، كما أنه يشير إلى كثير من معالم المدينة ، وبعضها باق حتى اليوم ، وبعضها اختفى مع الأيام ، فهو نص هام للمؤرخ والطبوغرافى الذى يريد أن يرسم صورة واضحة لدمياط فى القرن الثامن الهجرى .

هذه هى دمياط فى أوائل القرن الثامن الهجرى قد استعادت مكانتها ، وأصبحت مزدهرة عامرة بالدور والقصور والمساجد والمدارس والمتاجر ، ولم تقف عند هذا الحد بل اتخذت طريقها نحو التقدم حتى غدت فى النصف الثانى من هذا القرن ميناء مصر الأولى ، فقد تفوقت على الأسكندرية ، وورثتها فى مكانتها ، وتفصيل ذلك أن روح الحروب الصليبية — بعد طرد الصليبيين نهائياً من عكا آخر مدنهم فى الشام فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون — قد ضعفت شيئاً ما ، ولكنها لم تخمد تماماً ، وقد حاول الأوربيون تجديد هذه الحروب فى القرن الثامن ، ففى سنة ٧٦٧ أغار على الاسكندرية أسطول ضخم من قبرص ، واستطاع القبارصة أن ينزلوا إلى البر ويستولوا على المدينة ،

وقد لبثوا بها أياماً قضوها فى تخريب المدينة تخريباً تاماً ، ثم عادوا محملين بالأسلاب والغنائم والأسرى.

هذه الحملة هزت كيان الاسكندرية هزاً عنيفاً ، وأسرت العدد الكبير من سكانها ، وشتتت عدداً أكبر ، فضعف شأن المدينة منذ ذلك الحين ضعفاً شاملا ، ولم تعد لها مكانتها الأولى ، وإنما أصبحت دمياط هي الميناء المصرية الأولى ، وقد دفعها هذا العامل الجديد إلى النمو والازدهار دفعاً قوياً.

٧ - في القرن التاسع الهجرى

دمياط ميناء مصر الأولى

ولم يكد يبدأ القرن التاسع الهجرى (١٥م) حتى غدت دمياط المدينة المصرية الثانية بعد العاصمة ، وعادت ثانية المقر الذى تخرج منه أساطيل المصريين للغزو فى البحر الأبيض المتوسط ، ففى سنة ٨٢٥ (١٤٢٢—١٤٢٣) — فى عهد الأشرف برسباى — خرجت أساطيل مصر من دمياط للإغارة على جزيرة قبرص ، والدافع الأكبر لإرسال هذه الحملات هو الانتقام من القبارصة لما فعلوه بالاسكندرية فى عهد الأشرف شعبان ، ولكن السبب المباشر يتصل أيضاً بدمياط ؛ يروى صالح بن يحيى أن « موجب ابتداء الخان مع صاحب قبرص أن شخصاً من تجار دمياط يسمى أحمد بن الهميم كان له مركب كبير قد أوسقه من طرابلس الشام صابوناً وبضائع بمال كثير ، فلما وصل إلى فم دمياط صادفه مركب من حرامية الفرنج من طائفة البسقاوية ، فأخذ مركب ابن الهميم وتوجه به إلى قبرص ».

وقد أرسل برسباى ثلاث حملات لفتح قبرص : الأولى فى سنة ٨٢٦ (١٤٢٤) والثانية فى سنة ٩٢٩ (١٤٢٥) ، والثالثة فى سنة ٨٣٠ (١٤٢٦) ، وقد خرجت الحملتان الأولى والثانية من دمياط ، أما الثالثة فقد خرجت من الاسكندرية ؛ وقد نجحت الحملة الثالثة فى الاستيلاء على جزيرة قبرص وضمها لملك مصر ، وعادت أساطيلها

إلى دمياط فى شوال سنة ٨٣٠ (اغسطس ١٨٢٦) ثم انحدرت منها إلى بولاق محملة بالأسلاب والغنائم والأسرى، وفى مقدمتهم ملك قبرص نفسه (الملك جانوس) وقائد قواد الجزيرة . واحتفلت القاهرة باستقبال رجال الأسطول المنتصرين، وخرج أهلوها جميعاً للاحتفال بمواكب النصر التى شقت الشوارع وفى مقدمتها الملك الأسير وقائده ممتطيان بغلين وأمامهما تاج قبرص وأعلامها ، ويتبعهما ألوف الأسرى .

وإبان قيام الحملة الثانية بالإغارة على قبرص أمر برسباى بتشييد برج عظيم فى مدينة الطينة القريبة من دمياط، وشحنه بالمقاتلين لمراقبة سفن الأعداء إذا حاولت تهديد السواحل المصرية .

٨ – زيارة المقريزى لدمياط ووصفه لها

فى القرن التاسع الهجرى

وقد زار دمياط فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى المؤرخ المصرى الكبير تقى الدين المقريزى ، وأرخ لها، ووصف الكثير من معالمها فى كتابه «الخطط» . وقال إنها «أحسن بلاد الله منظراً» ، ثم قال أيضاً وقد: «أخبرنى الأمير الوزير المشير الاستادار يلبغا السالمى — رحمه الله — انه لم ير فى البلاد التى سلكها من سمرقند إلى مصر أحسن من دمياط هذه ، فظننت أنه يغلو فى مدحها ، إلى أن شاهدتها فاذا هى أحسن بلد وأنزهه» . ثم أثبت فى كتابه السالف الذكر قصيدة قالها فى مدحها ، نقتطف هنا معظم أبياتها لما حوته من وصف نادر لدمياط ومعالمها الهامة فى ذلك العصر ، قال :

سقى عهد دمياط وحياه من عهد	فقد زادنى ذكراه وجداً على وجد
ولا زالت الأنواء تسقى سحابها	دياراً حكت من حسنها جنة الخلد
فيا حسن هاتيك الديار وطيبها	فكم قد حوت حسناً يجل عن العد
فلله أنهار تحف بروضها	لمرهف المصقول أو صفحة الخد
وبشنينها الريان يحكى متيما	تبدل من وصل الأحبة بالصد

ولاسيما تلك النواعير إنها | تجدد حزن الواله المدنف الفرد
أطارحها شجوى، وصارت كأنما | تطارح شكواها مثل الذى أبدى
وفى البرك الغراء ياحسن نوفر | حلا، وغدا بالزهو يسطو على الورد
سماء من البلور فيها كواكب | عجيبة صبغ اللون محكمة النضد
وفى شاطئ النيل المقدس نزهة | تعيد شباب الشيب فى عيشه الرغد
وفى مرج البحرين جم عجائب | تلوح وتبدو من قريب ومن بعد
كأن التقاء النيل بالبحر إذ غدا | مليكان سارا فى الجحافل من جند
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا | ولا طعن إلا بالمثقفة الملد
فظلا كما باتا، وما برحا كما | هما من جليل الخطب فى أعظم الجهد
فكم قد مضى لى من أفانين لذة | بشاطئها العذب الشهى لذى الورد
وكم قد نعمنا فى البساتين برهة | بعيش هنيء فى أمان وفى سعد
وفى البرزخ المأنوس كم لى خلوة | وعند شطا عن أيمن العلم الفرد
هناك ترى عين البصيرة ما ترى | من الفضل والأفضال والخير والمجد
فيارب هيئ لى بفضلك عودة | ومن بها فى غير بلوى ولا جهد

فالمقريزى يشير فى هذه القصيدة إلى معالم المدينة وضواحيها الهامة التى زارها ، وهى البساتين ومرج البحرين والبرزخ وشطا ، كما أنه نعم أثناء مقامه بها بجوها الصحو ورياحها « التى تطرد الهم والأسى » ، وسمائها التى كالبلور ، وشاطئها الذى « يعيد شباب الشيب فى عيشه الرغد » ، وأعجب ببشنينها الريان ، وهز عواطفه أصوات النواعير « التى تجدد حزن الواله المدنف الفرد » ، ثم أحس أخيراً أن نفسه لم تشبع من هذا الجمال ، فتمنى على الله — فى خاتمة قصيدته — أن يهيئ له عودة اليها ؛ وإنما « فى غير بلوى ولا جهد » .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٩ ـ دمياط منفى السلاطين والامراء

وقد اتخذت دمياط فى القرن التاسع صفة أخرى غير ما عرفنا ، فقد أصبحت منفى للأمراء المغضوب عليهم ، وسلاطين المماليك وأبناء السلاطين المخلوعين عن عروشهم ، يبعدون إليها ليسجنوا فى أبراجها ، أو ليعيشوا فيها أحراراً أو مراقبين :

فى منتصف القرن التاسع نفى إلى دمياط خليل بن الملك الناصر فرج بن برقوق ، فقضى بها المدة الأخيرة من حياته إلى أن وافته منيته بها فى سنة ٨٥٨ ، فدفن بالقرب من قبر الشيخ فاتح الأسمر لمدة ثمانية أيام إلى أن سمح السلطان بنقل جثته ، فنقلت إلى القاهرة ، ودفنت بتربة جده الظاهر برقوق .

وفى سنة ٨٧٣ (١٤٦٨ ـ ١٤٦٩) استطاع السلطان الملك الأشرف قايتباى أن يرتقى عرش مصر بعد عزل السلطان الملك الظاهر تمربغا ، وأبعد السلطان المعزول إلى دمياط معززاً مكرماً ، سافر إليها فى حراقة بطريق النيل ، فلما وصل إليها « سكن فى أحسن دورها ، وكان يركب إلى صلاة الجمعة » ، وفى نهاية هذا العام فر تمربغا من دمياط إلى الطينة ثم إلى غزة ، فأرسل قايتباى الجند خلفه ، فلحقوا به فى غزة ، وقبضوا عليه ، وعادوا به إلى الأسكندرية ، فسمح له السلطان بالمقام فيها بعد أن اعتذر عن فعلته .

١٠ ـ الملك المنصور عثمان بن جقمق

يقيم فى دمياط بعد عزله

وكان قد نفى إلى دمياط أيضاً ـ قبل تمربغا ـ الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، فقد ولى السلطنة بعد وفاة أبيه جقمق ، غير أنه لم يلبث بها إلا أياماً ، ثم وثب به الأتابك إينال وخلفه على العرش ، ولقب بالملك الأشرف ؛ ونفى المنصور عثمان إلى الاسكندرية أولا ، ثم نقل إلى دمياط فقضى بها سنوات طويلة ، ولم يحاول الفرار كصاحبه الظاهر تمربغا ، وإنما اتصل بالعلماء وقضى بقية حياته يشتغل بالعلم ، وحرص



« على الانعزال والمطالعة والتلاوة والصيام ، وصرف أوقاته فى الطاعات : وتحريه فى نقل العلم ، وإعراضه عن التشاغل بأنواع الفروسية ومتعلقاتها مع تقدمه فيها » .

وقد عرف له سلاطين المماليك قدره ، فبالغوا فى إكرامه ، وتركوا له الحرية الكاملة للإنتقال فى الثغر ومنه ، فقد سمح له قايتباى بزيارة القاهرة فى صفر سنة ٨٧٤ (اغسطس ١٤٦٩) ، وكانت قدمته هذه ليسأل السلطان أن يسمح له بالحج ، فأذن له ، وخرج عثمان فحج « فى أبهة تامة » ثم عاد فأقام بدمياط كما كان .

وفى ذى الحجة سنة ٨٨٠ احتفل المنصور عثمان فى دمياط بختان أولاده احتفالا عظيما ، فبعث إليه قايتباى بألفى دينار « بسبب احتياج المهم ، وتوجه إليه ابن رحاب المغنى ، ومشى فى الزفة ، وكان له مهم حافل » .

وقد اتخذ المنصور عثمان له حاشية من العلماء والأدباء ، فكانت داره بدمياط حافلة دائماً بمجالس العلم ، وممن اتصل به هناك الأديب المؤرخ محمد بن أبى بكر بن عمر القادرى الجوهرى الدمياطى ، ولد هذا الأديب بدنجية قرب دمياط فى سنة ٨٢٠ ، وتلقى العلم بها وببعض مدن الصعيد ، وحج فى سنة ٨٣٤ ، ثم استقر فى دمياط ، وناب فى القضاء بها وقال الشعر ، « وأتى بالقصائد الجيدة ، وخمس البردة ، ومدح كثيراً من الرؤساء ، .... وتكسب فى سوق الجوهريين وقتاً » .

١١ ـ المقامة الدمياطية في وصف الثغر ومحاسنه

للقادرى الجوهرى الدمياطى

وقد مدح القادرى المنصور عثمان بقصيدة جميلة (سماها الروض الممطور فى مدح الملك المنصور) وقدم لها بمقامة فى وصف دمياط سماها : (المقامة الدمياطية فى وصف الثغر ومحاسنه السنية) ، والقصيدة والمقامة يضمهما مجلد واحد ولا تزالان مخطوطتين ، ولهما — إلى جانب قيمتهما الأدبية — أهمية خاصة ، فهما يرسمان صورة شائقة لدمياط فى أواخر القرن التاسع الهجرى ، وهذه الصورة فى جملتها لا تختلف كثيراً عن الصورة التى رسمها المقريزى لدمياط فى أوائل القرن نفسه .

يصف القادرى دمياط فيبالغ فى مدحها ، فيقول : « إنها الجنة الصغرى ؛ والمدينة الخضرا ، وريحانة أرواح الشهداء ، وخزانة أرباح السعداء ، رباطها عنوان المقربين ، وصراطها ميدان طلاب المجاهدين ، وثياب غربتها من لباس المنة ، وتراب تربتها من غراس الجنة » ، ثم يعدد بعد ذلك ما بها من قبور الأولياء الصالحين ، كشطا ، وفاتح الأسمر ، وابن قفل ، وحسن الطويل ، وجمال الدين (؟) ، وعبد الله الشهيد (؟) ، فيقول : « ونقر عينك من مشاهد شهداء التابعين بنواحيها ، على أعلى شاطىء البحيرة التى هى من محاسن ضواحيها ، مشهد شهيد المعركة يوم فتوحها ولى الله شطا ، الذى أمن بسره ثغرها من عدو العدو المخذول ، ومن سطاه إذا سطا ؛ ويستمطر بها الفتح عند مشهدك (أبى) العطا ولى الله فاتح الأسمر ، الذى يغنى سره فى المهمات المدلهمات إذا اشتد الخطب عن كل أبيض وأسمر ؛ ومن بنى قفل بعد فتح ، حامى البرزخ سهمها المسدد سديد ؛ ومشهد بدر حسنها عند مسجد الشهداء ولى الله حسن الطويل الشهيد ؛ ومشهد جمالها ولى الله جمال الدين ، الذى برحاب جنته ثوى ، ومشهد عبد الله الشهيد ، الذى استغنى فى الجهاد عن دروع الحديد بدرع النوى ؛ فما توسل أحد بهؤلاء الأولياء أو زاره ، إلا حقق الله قصده فيما يرجو من الخيرات وخفف أوزاره » ، ثم يستطرد بعد هذا فيصف بساتينها .وما كانت تغص به من « طلح منضود ، وظل ممدود ، وماء من دوالبها مسكوب ، بأحشاء كل جدول وكوب ، ويشفى الغليل من العليل ، ويكرم به البخيل ، وبها البهرمان من منظوم عقود بسرها الأحمر ، واللجين والعسجد من منثورها الأبيض والأصفر » ، ولا يكاد ينتهى من هذا الوصف المنثور حتى ينظمه شعراً ، يصف فيه ما تنبته المدينة من ثمار وأزهار ؛ كالموز والنخيل والورد والقصب .... إلخ ثم يعود إلى وصفه المنثور فيرتفع بدمياط إلى الذروة ، لأنه يعتقد أنها «مدينة أشبه شىء فى وصفها بإرم ذات العماد ؛ مدينة شداد بن عاد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد» ثم يعود مرة أخرى فينظم هذا الوصف شعراً ، يقول فيه :

يا حسنها بلداً فى أفق بهجتها   كأنها الشمس حسناً ذات أبراج

كأنها القوس فى شكل له وتر   وبحره الزاخر الرامى بأمواج ..

وينتقل بعد هذا إلى هدفه الثانى ، وهو مدح الملك المنصور عثمان المقيم بدمياط : فيمدحه بقصيدة تائية طويلة ، ديباجتها إشادة بالثغر ومحاسنه ، ومطلعها :

من ثغر دمياط حيتنا الثنيات   بملثم ، فلها منا التحيات

والبدر قابل برجيها دجى ، فهما   والبدر فى الليل أقمار سنيات

والبحر عن بره بالماء روى خبرا   مسلسلا : نسمات عنبريات

وختم القادرى رسالته الصغيرة بتعليق لطيف شرح فيه أبيات هذه القصيدة — بيتاً بيتاً — ليبين ما فيها من « البديع والمعانى التى تخفى على كثير من شعراء هذا الزمان » .

١٢ – دمياط في عهد قايتباى

وقد كان مقام المدينة الجديد — كميناء مصر الأولى — دافعاً لسلاطين مصر على العناية الدائمة بدمياط ، وفى مقدمتهم السلطان الأشرف قايتباى ؛ فقد كان هذا السلطان من أبرز وأعظم سلاطين المماليك ، وله فى المدن المصرية المختلفة المنشآت الكثيرة من مساجد ومدارس وحصون وقلاع ، وقد عنى هذا السلطان بدمياط عناية خاصة فزارها مرتين للإشراف على شؤونها الحربية والعمرانية : زارها فى صفر سنة ٨٧٧ ، ثم زارها ثانية فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ (اكتوبر ١٤٧٥) ، وكان سفره إليها وعودته منها بطريق النيل ، فقد خرج فى مائة مركب وفى حاشية كبيرة من أمراء جيشه ورجال دولته « فلما طلع إلى الثغر لاقاه النائب ، ومد له مدة حافلة ، فأقام بها أياماً وهو فى أرغد عيش ، وتنزه فى غيطان البلد ، وتوجه إلى مكان يصاد به السمك البورى ، ونزل فى مركب صغير ، وعاين كيف يصاد البورى » .

وقد أمر قايتباى بانشاء برجه العظيم فى الاسكندرية فى سنة ٨٨٢ ، وتم بناؤه فى سنة ٨٨٤ ؛ وفى نفس السنة أراد أن يتم تحصين شواطىء مصر الشمالية جميعا ،

ويبدو أن السلسلة الضخمة التي كانت تمتد من برج دمياط إلى شاطئها قد بطل استعمالها ، ونزعت من مكانها — وإن كنا لانعرف فى أى عصر نزعت — فأرسل قايتباى فى هذه السنة أميراً من أمرائه لتجديد هذه السلسلة ، يقول ابن إياس فى حوادث هذه السنة : « وفيها فى المحرم توجه الأمير يشبك الدوادار إلى ثغر دمياط ، وكان السلطان قد جعله متحدثاً عليها ، فلما توجه إلى هناك أنشأ على فم البحر الملح عند برج الملك الظاهر بيبرس البندقدارى سلسلة من الحديد زنتها نحواً من مائتين وخمسين قنطاراً من الحديد ، وكانت هذه السلسلة قديماً هناك ثم بطل أمرها ، فجددها الأمير يشبك الدوادار فى هذه السنة ، وحصل بها النفع لطرد مراكب الفرنج الكبار »

وفى عهد قايتباى بنيت فى دمياط أيضاً المدرسة المتبولية — التى لاتزال موجودة حتى الآن — ، بناها قايتباى لولى الله الشيخ إبراهيم المتبولى ، فقد كان من المعتقدين فيه .

١٣ — دمياط تصبح نيابة فى أواخر العصر المملوكى

هذه هى دمياط فى أوج عظمتها حتى أواخر القرن التاسع الهجرى (١٥ م) ، وقد ارتفعت — لمكانتها الجديدة — من ولاية إلى نيابة ، فقد كانت فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول ولاية من ولايات الوجه البحرى ، فقد كان فى الوجه البحرى وقتذاك أربع ولايات ، فى : منوف ، وأشموم ، ودمياط ، وقطيا ؛ وكانت كل ولاية يليها وال أمير عشرة ، أى من صغار أمراء الدولة ، وكانت الأقسام الإدارية فى الدولة المملوكية إذ ذاك إما ولايات أو نيابات ، والنيابة أعلى مرتبة ، ويتولاها نائب عن السلطان يكون عادة من الأمراء المقدمين أو أمراء المئات ، وهم أكبر الأمراء قدراً ؛ ولم يكن بمصر نيابات غير نيابة الأسكندرية : فقد كانت كدمياط ولاية ثم جعلت نيابة فى عهد الأشرف شعبان — أى بعد غزوة القبارصة — .

ويبدو أن دمياط جعلت نيابة أيضاً حوالى ذلك الوقت فان تواريخ مصر تبدأ

فى القرن التاسع فتسمى حاكم دمياط نائباً — لا والياً — ، وتشير إلى نيابة دمياط لا إلى ولاية دمياط ؛ وفى تاريخ ابن إياس مثلا ذكر لكثير من النواب الذين حكموا دمياط فى القرن التاسع وفى السنوات الأولى من القرن العاشر الهجرى.

١٤ - دمياط في عهد قانصوه الغورى

وكان قايتباى آخر سلاطين المماليك العظام ، وكان عهده آخر عهود الازدهار ، وبدأت مصر بعده فى التأخر والإضمحلال ؛ وأصاب دمياط وموانىء مصر عامة ما أصاب مصر ، فاذا كان عهد الغورى خيم على هذه الموانىء الخراب ، ووقفت حركة الصادر والوارد بها لعبث الفرنج بشواطئها ، يقر هذه الحقيقة ابن إياس فى تاريخه ، فيقول فى حوادث سنة ٩٢٠ : « وكان فى تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص فى غاية الانشحات والتعطيل ، فان بندر الاسكندرية خراباً ، ولم تدخل إليه القطائع فى السنة الخالية ، وبندر جدة خراباً بسبب تعبث الفرنج على التجار فى بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحو من ستة سنين وكذلك جهة دمياط » ؛ وقال أيضاً فى حوادث سنة ٩٢٢ . « وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة ، وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والأزر والأنطاع وأخرب البندر ، وكذلك بندر الاسكندرية وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الفرنج . »



دمياط

في العصر العثماني

وظهر فى الأفق حينذاك خطر جديد أخذ يهدد الدولة المملوكية فى مصر ، ذلك هو خطر الدولة الإسلامية الفتية الناشئة ، دولة الأتراك العثمانيين ، وفى نفس هذه السنة التى وصف فيها ابن إياس تأخر الأحوال الاقتصادية فى موانىء الدولة — ومن بينها دمياط — ؛ فى هذه السنة — وهى سنة ٩٢٢ (١٥١٧) — انقض الأتراك العثمانيون على مصر وافتتحوها وضموها إلى ملكهم بعد أن قضوا نهائياً على دولة المماليك .

وفى العصر العثمانى ازدهرت دمياط بعض الشىء لكونها أقرب الموانىء المصرية إلى آسيا الصغرى ، ولكنها لم تستعد مكانتها الأولى ؛ وقد عانت دمياط — كما عانت مصر كلها فى ذلك العصر — من اضطراب الأحوال وكثرة الفتن ؛ وقد ظلت دمياط منفى للأمراء الثائرين كما كانت فى العصر السابق ؛ وفى كتب التاريخ شواهد كثيرة تؤيد ما ذكرنا ، نكتفى بذكر واحد منها :

ففى سنة ١٢١٨ اشتد النزاع بين عثمان بيك البرديسى وبين حاكم مصر التركى خسرو باشا ، وقتل كثير من اتباع الفريقين ؛ يقول الجبرتى : « وهجم المصريون (يقصد المماليك أعوان البرديسى) على دمياط ودخلوها . . . ونهبوها ، وأسروا نساءها ، وافتضوا الأبكار ، وصاروا يبيعونهن كالأرقاء ، ونهبوا الخانات والبيوت والوكائل والمراكب » .



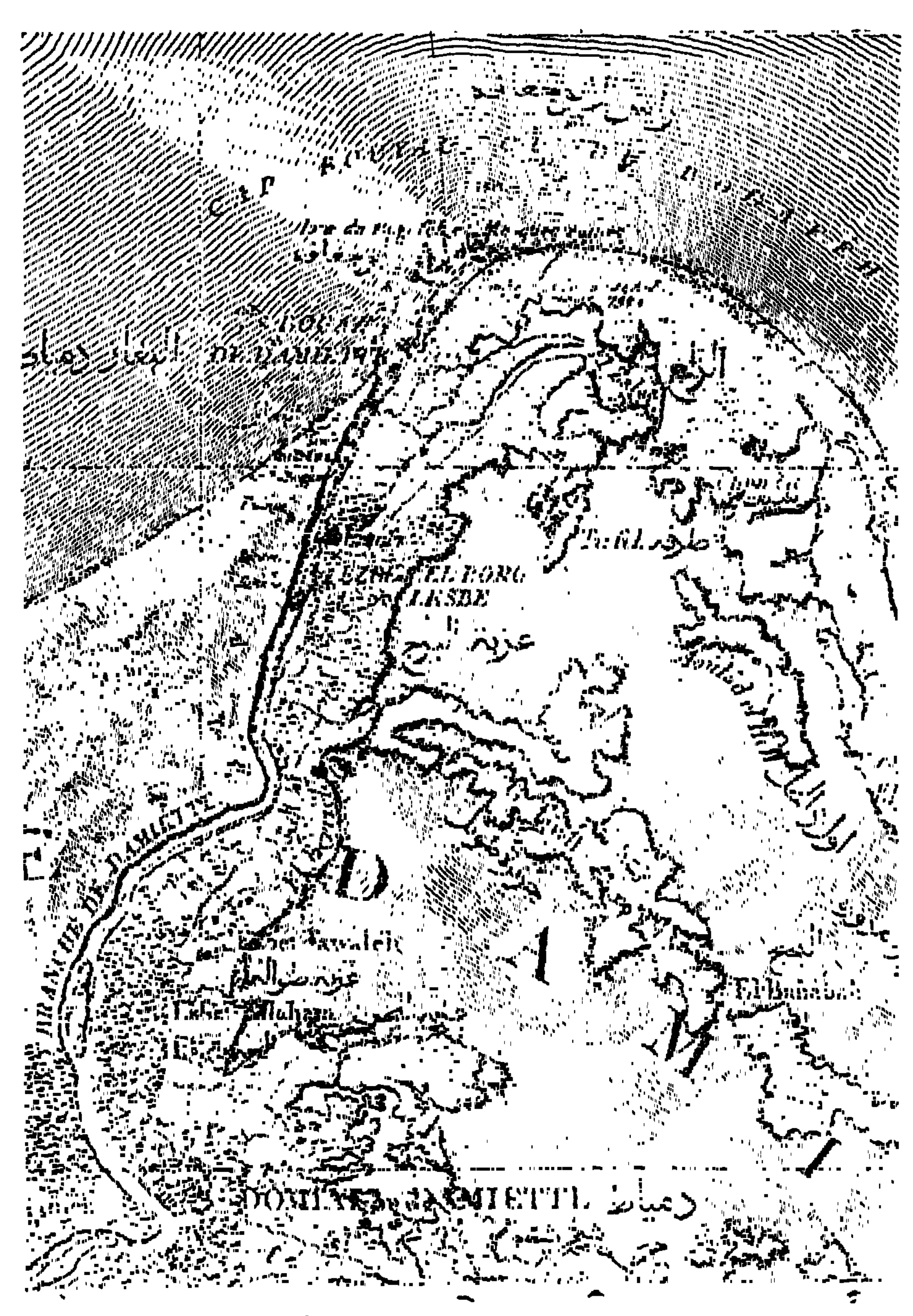
دمياط

في عهد الحملة الفرنسية

وظلت الحال على هذا إلى أن أتت الحملة الفرنسية إلى مصر ، وقد أثبت علماؤها في أبحاثهم أن دمياط كانت ثانى مدينة فى القطر المصرى بعد القاهرة فقد قاموا باحصاء السكان فى مدن القطر الهامة ، وتبين لهم أن عدد السكان بالقاهرة ٢٦٣,٠٠٠ نسمة وأن عدد سكان دمياط ٣٠,٠٠٠ ؛ وكانت رشيد هى الثالثة وعدد سكانها ١٣٠٠٠ ، أما الاسكندرية فكان عدد سكانها ٨٠٠٠ نسمة فقط . ولهذا عنى الفرنسيون بدمياط عناية خاصة ، فأرسلوا إليها بعد الإستيلاء على القاهرة فرقة من الجيش الفرنسى فى أوائل اغسطس سنة ١٧٩٨ ، وعين الجنرال (Vial) حاكماً على مديريتى المنصورة ودمياط .

غير أن سكان هاتين المديريتين لم يخضعوا للفرنسيين ، بل قاوموهم مقاومة عنيفة ، وقاموا بثورات خطيرة أقضت مضاجع الفرنسيين وأتعبتهم ، وكانت دمياط وقرى بحيرة المنزلة مقر تلك الثورات ، وكان بطلها ومحركها حسن طوبار زعيم إقليم المنزلة .

وقد حاول فيال حاكم دمياط أن يستميله إليه بكل الوسائل ولكنه لم يفلح وفى الوقت الذى كان حسن طوبار يقود فيه ثورات المنزلة ويحشد أساطيله بالبحيرة لمهاجمة الفرنسيين قامت الثورة فى دمياط نفسها فى أوائل سبتمبر سنة ١٧٩٨ ، واشترك فيها أسطول حسن طوبار الذى تحرك فى بحيرة المنزلة حتى وصل إلى غيط النصارى شرقى دمياط ، وتقدم الأهلون ورجال الأسطول — وكانوا جميعاً مسلحين بالبنادق والرماح — نحو دمياط ، وقتلوا الحراس الفرنسيين ، فتقدم فيال بقواته لمقاتلتهم ، ففر بعضهم وركبوا السفن عائدين ، واتجه فريق آخر إلى قرية الشعراء المجاورة لدمياط ، واتخذوها معسكراً لهم . وفى نفس الوقت ثار أهالى عزبة البرج بحاميتهم



خريطة دمياط كما رسمها علماء الحملة الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر

الفرنسية وقتلوا رجالها ؛ واستطاع فيال أن يقتحم قرية الشعراء ، ودخلها بجنده فنهبوها وأضرموا فيها النار. ولما سمع أهالى عزبة البرج أن الفرنسيين نجحوا فى إخماد ثورة دمياط تركوا قريتهم ورحلوا بأسراتهم فى السفن إلى سواحل سوريا.

وتقدم الفرنسيون بعد هذا إلى المدن والقرى القريبة من دمياط كميت الخولى والضاهرية والزرقة ، فأخمدوا ثوراتها ونهبوها نهباً تاماً ، وقد كتب الجنرال لوجنيه فى يومياته يصف المساوىء التى ارتكبها الجنرال فيال عند انتقامه من ميت الخولى والقرى المجاورة ، قال : « فى اليوم الذى عاد فيه الجنود إلى دمياط بعد هذا النهب ، كانت مدينة دمياط أشبه بسوق أو مولد ، باع فيه الجنود الفرنسيون إلى الأروام مانالته أيديهم من النهب والسلب ، فكانوا يعرضون المواشى والطيور والثيران والبقر والخيول والحمير والغنم والدجاج والأوز . . . وكثيراً من قطع الذهب والفضة التى كانت حلياً للنساء ».

وأرسل نابليون الجنرال دوجا للأشراف على منطقة بحيرة المنزلة ، كما أرسل إلى دمياط بعض السفن المسلحة مدداً للقوة المعسكرة هناك ، على أن مركز الفرنسيين ظل مزعزعاً فى هذه المنطقة ، يؤيد هذا قول الجنرال لوجييه فى يومياته :

« لم تتحسن الحالة كثيراً عما كانت عليه حينما جاء الجنرال دوجا لأول مرة إلى دمياط ، والسلطة الفرنسية مازالت منكورة فى معظم جهات الدلتا التابعة لهذه المديرية ، وفى دمياط نفسها التى تعتبر من أعظم بلاد القطر المصرى لا يأمن الجندى الفرنسى على حياته إذا هو ذهب إلى حى الوطنيين . والحامية الفرنسية مقصاة فى حى الأروام » .

علم نابليون من تقرير قواده أن منطقة دمياط لن تخضع للفرنسيين إلا إذا قضى على نفوذ حسن طوبار المعسكر فى المنزلة ، والمسيطر على بحيرتها بأساطيله ورجاله ، فأرسل قائداً آخر من قواده يسمى (اندريوسى Andreossi)ليشرف على إخضاع هذه المنطقة ؛ واتصل هذا القائد بقواد الحاميات الفرنسية المقيمة بدمياط وحولها ؛ ووضع الخطة للاستيلاء على المنزلة معقل حسن طوبار ، وقد استطاع الفرنسيون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدخول إلى المدينة حقاً فى أوائل اكتوبر ، ولكن بعد أن خرج منها كل أهلها ، ولم يتركوا بها إلا الشيوخ والنساء ؛ وقد فر حسن طوبار إلى غزة ، وبقى بها إلى أن عاد به نابليون إلى مصر بعد فشل حملته على سوريا ، وأقام فى بلدته ملتزماً السكينة والهدوء، فقد احتفظ الفرنسيون بابنه رهينة عندهم فى القاهرة ، ليتأكدوا من ولائه وهدوئه ، وقد مات طوبار فى سنة ١٨٠٠ ؛ فنشرت جريدة الحملة الرسمية (كوربيه دلجبت) خبر وفاته .

وقد عنى الفرنسيون بعد إخضاع هذه الثورات بتحصين منطقة دمياط فأنشأوا قلعة بعزبة البرج ، وقلعتين على مدخل البوغاز شرقاً وغرباً ؛ وقد أقاموا هذه القلاع جميعاً على أنقاض الأبراج والقلاع القديمة التى يبدو أنها كانت قد تهدمت وتشعث بنيانها فى العصر العثمانى .



دمياط
في عصر الأسرة المحمدية العلوية

في عصر محمد على الكبير :

وفى السنين الأولى من عصر محمد على الكبير حافظت دمياط على مكانتها ، فقد كانت ثانى مدينة فى القطر بعد العاصمة — القاهرة — كما كانت ميناء مصر الأولى ، عنها تصدر ، وإليها ترد معظم التجارة الخارجية ، وكان يقوم بها كثير من الخانات والوكائل .

وقد عنى بها محمد على فى أوائل عهده عناية خاصة ، ذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١٢٣١ (١٨١٦) أن أحد أبناء البلد ، واسمه حسين شلبى عجوة ، اخترع آلة لضرب الأرز وتبييضه ، وقدم نموذجاً لها إلى محمد على ، فأعجب بها وأنعم على مخترعها ، وأمره بتركيب مثل هذه الآلة بدمياط وأخرى برشيد ، ويقول الجبرتى : «إن الباشا لما رأى هذه النكتة من حسين شلبى هذا ، قال : إن فى أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف» ، وأمر فى الحال بانشاء مدرسة للهندسة فى القلعة لتعليم المصريين العلوم الهندسية ، وهى أول مدرسة للهندسة أنشئت فى عصر محمد على ، ثم تلتها مدارس أخر.

وفى عهد محمد على أيضاً أنشئت مدرسة للمشاة فى دمياط ، وكانت مهمتها إعداد الضباط لسلاح المشاة ، وكانت تضم ٤٠٠ طالب ، كما أنشىء بها مصنع للغزل يشبه المصانع الآلية الكثيرة التى أنشئت فى مدن القطر المختلفة وقتذاك ، وفى عهده (١٢٣٣—١٨١٨) جعلت دمياط محافظة .

غير أن محمد على اتجه فى إصلاحاته كلها إلى النقل عن أوربا ، سواء أكان ذلك فى التعليم أو الصناعة أو الجيش والبحرية . . . إلخ ، ولما كانت الاسكندرية

أقرب الموانئ المصرية إلى أوربا فقد حباها بعطفه ، وبنى فيها القصور لإقامته ، واتخذها مقراً لدار صناعة السفن ، وحفر ترعة المحمودية؛ ومنذ تم حفر هذه الترعة استعادت الاسكندرية مكانتها القديمة — كميناء مصر الأولى — وساعد على هذا أن البخار استخدم فى ذلك الوقت لتسيير السفن ، وحلت السفن البخارية الكبيرة الحجم محل السفن الشراعية ؛ وميناء دمياط ميناء رملية كثيرة الرواسب لاتستطيع السفن الكبيرة الدخول إليها والرسو بشاطئها .

فى عهد عباس باشا الأول :

بدأت دمياط إذن تفقد مكانتها كميناء مصر الأولى ، وغدت الميناء الثانية بعد الاسكندرية ؛ ولكنها لم تفقد أهميتها الحربية كثغر من ثغور مصر المطلة على البحر الأبيض المتوسط ، ولهذا عنى بها عباس باشا الأول العناية كلها ، فانشأ بها طريقاً عسكرياً يمتد من المدينة إلى البوغاز ، وأنشأ عباس الأول بدمياط أيضاً قشلاقاً كبيراً على شاطىء النيل ، ومجموعة من مخازن البارود والمهمات العسكرية كما أنشأ بها مبنى للحجر الصحى ومحلا للجمرك جنوبى هذه القلعة على شاطىء النيل .

فى عصر اسماعيل باشا :

وكان عصر إسماعيل العظيم عصر إصلاح مدنى ، وقد نالت دمياط حظها من هذا الإصلاح ، فوصلت السكة الحديدية والتلغراف إلى بر المدينة الغربى (السنانية) وبالقرب من محطة السكة الحديد أنشئت فى عصر إسماعيل ثكنات جديدة للجند ، وإلى جانبها أقيم مستشفى عسكرى يسع خمسمائة سرير ، وأوصلت أسلاك البرق إلى قلاع البوغاز جميعاً — وخاصة قلعة عزبة البرج — ، وأجريت إصلاحات كثيرة بهذه القلعة ، وعمر جامعها القديم والمنزل القائم وسط مبانيها ، وانشئت إلى جانب الأبراج القديمة قلاع حصينة جديدة ، وزودت هذه القلاع جميعاً بالمدافع

العظيمة ذات العيار الكبير والمرى البعيد، وقد وضع تصميمات هذه القلاع أمير اللواء محمد باشا المرعشلى باشمهندس عموم الاستحكامات وقتئذ .

وفى عهد إسماعيل أيضاً أنشىء عدد من الفنارات على طول الشاطىء الشمالى لمصر، ومن بينها فنار دمياط ، ويمتاز على غيره من هذه الفنارات بأن نوره يظهر ويختفى، ويدور دورة كاملة مدتها دقيقة واحدة .

وفى أواخر سنة ١٢٥٩ (١٨٤٣) — فى عصر إسماعيل — انشىء مجلس بلدى دمياط.

فى عهد توفيق باشا :

وفى ابريل سنة ١٨٨٠ زار الخديو توفيق باشا دمياط ، وبعد هذه الزيارة بقليل قامت الثورة العرابية ، وفى إبانها سافر آلاى عبد العال حلمى — أحد أبطال الثورة — إلى دمياط فى اكتوبر سنة ١٨٨١ للإشراف على حمايتها وتحصينها ؛ وقد استقر هذا الآلاى فى ثكنات المدينة .

ولما دخل الانجليز الاسكندرية وانتصروا فى وقعة التل الكبير ، ضعفت الهمم ، وبدا أن المقاومة لم تعد مجدية ، ولكن البطل عبد العال حلمى قائد دمياط أبى التسليم فى أول الأمر ، وحاول أن يقنع الجند والأهلين أن عرابى لايزال يقاوم ، ودعاهم للقتال ، ولكن أخبار تسليم طابية الجميل وصلت إلى دمياط ، فضعفت العزائم ، وأرسل الجنرال (وود) فرقة من جيشه إلى دمياط ، وأرسل قائدها — وهو فى السنانية — إلى عبد العال حلمى يطلب إليه التسليم ، فرفض أيضاً ، فعبر الانجليز النيل إلى دمياط ودخلوا الثكنات وقبضوا على عبد العال ، وأرسلوه إلى القاهرة حيث حوكم مع زعماء الثورة ، وحكم عليه بالنفى ، فنفى إلى (كولمبو) ميناء سيلان ، وبها توفى ودفن فى ١٩ مارس سنة ١٨٩١ ؛ أما آلاى دمياط فقد سرح الانجليز جنوده ، وأمروهم بالعودة إلى بلادهم ، ثم خربوا ثكنات السنانية ودمياط وهدموها جميعاً بعد أن جردوها من سلاحها تجريداً تاماً ، وأتلفوا مدافعها .

كلمة أخيرة

بين الجديد والقديم

هذه هى دمياط حتى أواخر القرن التاسع عشر ، أما دمياط القرن العشرين ، دمياط المعاصرة ، دمياط فؤاد الكبير وفاروق العظيم ، فهى ماثلة بين أعيننا ، وهى لاتزال تخطو نحو الازدهار والمجد خطوات وئيدة ، ولكنها وثيقة ناجحة .

ونحن إن كنا نأمل — مع أهل دمياط — فى شيء ، فذلك أن يعنى أولو الأمر بتنفيذ المشروعات الإصلاحية التى تعيد للمدينة سابق مجدها ، وخاصة مشروع الميناء ، ومشروع طريق دمياط بورسعيد ، ومشروع المجارى . . . . إلخ ودمياط فى رأينا أيضاً مدينة صالحة جداً لإنشاء جامعة بها . إن الإسراع بتنفيذ هذه المشروعات يطفر بدمياط طفرة سريعة إلى الأمام .

أما دمياط القديمة فلها علينا أيضاً حقوق ؛ ومن حقها علينا أن تعنى الجامعات بعمل حفائر علمية بها وبتنيس لتحديد موقع المدينتين ومعالمهما القديمة ، وأن تعنى مصلحة الآثار العربية بالمحافظة على مابقى بالمدينة من وكائل وخانات ومساجد ، فهى جميعاً صورة جميلة لدمياط القديمة ، ومن الأسف أن الدمياطيين أهملوا هذه الناحية إهمالا تاماً فى السنوات الأخيرة ، فتركوا وزارة الأوقاف تبيع الوكائل القديمة وتهدمها دون أن تستدعى مصلحة الآثار لإبداء رأيها ودراسة هذه المنشآت والمحافظة عليها ، أو تصويرها ودراستها قبل هدمها ؛ كما تركوا مهندسى البلدية يهدمون منارات المساجد القديمة ومبانيها دون تقدير لأهميتها الأثرية والفنية والتاريخية .

تاريخ المدينة الاقتصادى

التاريخ التجارى

كان يقع على ساحل مصر الشرقى ثغور ثلاثة : دمياط وتنيس والفرما ؛ وكانت دمياط فى العصور القديمة أقل هذه المدن أهمية ، غير أنها جميعاً لعبت دورا خطيراً فى تاريخ مصر التجارى فى العصور القديمة والوسطى ، وذلك لأن تجارة الشرق الأقصى الوافدة عبر البحر الأحمر كانت تصل إما إلى عيذاب ، ومنها تحمل بطريق القوافل إلى أسوان ، ثم تنحدر فى السفن شمالا إلى العاصمة عند قمة الدلتا ، ثم إلى دمياط أو الاسكندرية ، وإما أن تصل إلى القلزم (السويس الحالية) حيث تحمل بطريق القوافل إلى الفرما ، أو إلى العاصمة ثم تشحن بطريق النيل إلى دمياط أو الاسكندرية .

وكانت التجارة الواصلة إلى الفرما أو دمياط تصدر إلى سواحل البحر الابيض المتوسط الشرقية ، وخاصة سوريا وآسيا الصغرى واليونان ؛ وإليهما كانت ترد بضائع هذه الأقطار ، وقلما كانت ترد إلى هاتين المدينتين أو تصدر عنهما سفن غرب أوربا ، فقد كانت الاسكندرية هى مركز الاتصال التجارى بين مصر وغرب أوربا ، فهى أقرب إليه من دمياط ، أما تنيس فكانت تصدر عنها إلى الشرق منتجاتها الصناعية وخاصة المنسوجات.

وقد حافظت هذه المدن على مكانتها التجارية فى العصور القديمة ، فلما كان الفتح العربى بدأت دمياط تحتل مكان الصدارة بين هذه المدن الثلاث ، وخاصة أن الفرع البلوزى القديم الذى كان ينتهى عند الفرما أخذ فى الاضمحلال شيئاً فشيئاً ، ثم طمرته الرمال نهائياً فى الوقت الذى اتسع فيه فرع دمياط وأصبح طريق الملاحة بين العاصمة والبحر .

وقد صمدت دمياط لغارات البزنطيين والصليبيين عليها ، أما الفرما وتنيس فقد نالت منهما هذه الغارات ، فساعدت على إضعافهما ، وقد نزل الفرنج أخيراً

بالفرما سنة ٥٤٥هـ فنهبوها وأحرقوها ، ثم خربها تخريباً تاماً الوزير شاور فى منتصف القرن السادس الهجرى ، وكذلك تنيس تداول على تخريبها البيزنطيون ثم الفرنج ، إلى أن كانت سنة ٦٢٤ فأمر الملك الكامل محمد الأيوبى بتخريبها وهدم حصونها ، فرحل أهلوها إلى دمياط ، وهكذا زالت من الوجود هاتان المدينتان : الأولى فى القرن السادس الهجرى والثانية فى القرن السابع .

وورثتهما دمياط فغدت الميناء المصرية الوحيدة فى الركن الشمالى الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، فنشطت تجارتها وازدهرت ، ثم لم تلبث الحروب الصليبية التى توالت عليها أن أثرت فيها ، وهدمت دمياط القديمة بعد آخر حملة من هذه الحملات على مصر ، ثم انشئت جنوبيها مدينة جديدة ظلت تنمو شيئاً فشيئاً ، وذلك لأن موقعها الجغرافى يستلزم قيام مدينة فى هذه البقعة رغم قسوة الحروب وأحداثها .

ولما خرب القبارصة الاسكندرية فى القرن الثامن الهجرى فقدت أهميتها التجارية وأفادت دمياط من هذا الحادث ونتائجه ، فغدت منذ ذلك الحين ميناء مصر الأولى ، ونشطت تجارتها مع الغرب والشرق معا ، وزادت أهميتها أيضاً بعد الفتح العثمانى لمصر لكونها أقرب إلى مركز الدولة الحاكمة من الاسكندرية ، فأنشئت بها الوكائل والفنادق والخانات التى كانت آثارها لاتزال قائمة بها حتى عهد قريب جداً .

وظلت دمياط تحتفظ بمكانتها التجارية حتى سنوات الفتح الفرنسى لمصر فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، فقد قام علماء الحملة الفرنسية — كما سبق أن ذكرنا — باحصاء السكان فى مدن مصر الكبيرة ، وأثبت هذا الإحصاء أن دمياط كانت ثانى مدينة بعد العاصمة — القاهرة — وتليها رشيد ثم الاسكندرية .

واتجه محمد على باشا فى إصلاحاته وصلاته التجارية إلى بلدان غرب أوربا ، ودفعته هذه السياسة إلى العناية بمدينة الاسكندرية ، فاخذت تستعيد مكانتها القديمة — وخاصة بعد إنشاء ترعة المحمودية سنة ١٨٢٠ — وبدأت دمياط تضمحل تجارياً

شيئاً فشيئاً ، ثم زاد فى اضمحلالها التجارى مع مرور السنين عوامل كثيرة أخرى : أهمها أن البخار الذى أكتشف مع مولد القرن التاسع عشر استعمل فى تسيير السفن ، ثم اخذت السفن البخارية يكبر حجمها وغاطسها ، وبذلك اتجهت اتجاهاً طبيعيا إلى ميناء الاسكندرية ، وصدفت نهائياً عن ميناء دمياط لأنها ميناء رملية لاتصلح لاستقبال السفن الكبيرة ، ومدخلها ضحل غير عميق بتأثير الرواسب السنوية التى يأتى بها النيل ، وبتأثير الصخور التى القاها الظاهر بيبرس عند هذا المدخل فى القرن السابع الهجرى (١٣م).

ثم أنشئت قناة السويس وأنشئت معها ميناء جديدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط هى ميناء بور سعيد ، فسلبت هذه الميناء الجديدة ما بقى لدمياط من مجد تجارى ، وخاصة بعد ما وصلت السكة الحديد بين بور سعيد وداخل القطر ، وفى سنوات الحرب الكبرى الأولى انشئت سكة حديد فلسطين ، فتعاونت مع العوامل السابقة على القضاء نهائياً على مركز دمياط كميناء تجارى يتعامل مع بلدان البحر الأبيض الشرقية .

تضافرت هذه العوامل جميعاً على القضاء على تجارة دمياط الخارجية ، ولكن نشاط أهلها الطبيعى الموروث اتجه إلى النهضة بتجارة المدينة الداخلية وصناعاتها حتى أصبحت من مدن مصر الأولى فى هاتين الناحيتين .

وقد بدأت الحكومة المصرية منذ سنوات تشعر بمبلغ الخسارة التى أصابت دمياط كميناء تجارى له أهميته ، فأخذت تفكر فى خير الوسائل لاحيائها ، وبدأ هذا التفكير فى عهد الملك المصلح فؤاد الكبير ، فاستدعى عدد من الخبراء الأجانب فى سنة ١٩٢٦ لدراسة الميناء واقتراح خير الحلول لتعميق البوغاز ؛ وزارت لجنة الخبراء ميناء دمياط كما زارت كثيراً من الموانىء الاوربية الشبيهة بدمياط والواقعة عند مصبات الأنهار ، وقدمت تقريرها النهائى حوالى سنة ١٩٣٠ ، وفيها تقترح :

— العمل على تعميق البوغاز وبناء رصيفين طويلين داخل البحر لتمر من بينهما السفن الكبيرة إلى البوغاز .

— أو انشاء ترعة جديدة تخترق البر غربى جنوبى طابية الشيخ يوسف وتصب فى لبحر الأبيض المتوسط غربى رأس البر الحالية ، لتكون بمثابة مصب جديد ومدخل صالح للسفن الكبيرة.

وحوالى نفس الوقت قدم المهندس المصرى الكبير احمد راغب بك مشروعاً آخر لحفر ترعة ملاحية عبر بحيرة المنزلة ، يقوم على ضفتيها طريقان يصلان بين دمياط وبور سعيد ، والمشروع عظيم جداً ويحقق الأهداف المطلوبة من إحياء ميناء دمياط وربطها بالعالم الخارجى وبداخل القطر ، وقد فصل راغب بك الحديث عن مشروعه ومزاياه فى كتاب ضخم مزود بالخرط والاحصاءات والصور الإيضاحية أصدرته جمعية المهندسين الملكية .

ومع هذا كله فان الحكومة لم تأخذ باقتراحى الخبراء ولا باقتراح راغب بك ، وأنشأت طريقاً برياً يصل بين بور سعيد ودمياط ، ويمر فى معظمه بالجزر المتناثرة فى بحيرة المنزلة ، وقد أثبتت الحوادث والسنون عيوب هذا الطريق : وأنه لم يحقق الأغراض التى أنشىء من أجلها ، فعسى أن تعنى الحكومة من جديد باعادة التفكير فى مشروع راغب بك والعمل على تنفيذه : فهو فى نظرنا خير المشروعات التى قدمت حتى اليوم لإحياء ميناء دمياط وإعادتها إلى سابق مجدها التجارى الخارجى.

التاريخ الصناعى

وقد اشتهرت دمياط فى كل العصور بأنها كانت مدينة صناعية هامة ، وامتازت خاصة بصناعة النسيج ، والنصوص التى وصلتنا عن ازدهار هذه الصناعة فى دمياط وما جاورها ترجع فى معظمها إلى العصر العربى ، غير أننا نستطيع أن نقول واثقين أن دمياط ومنطقتها اشتهرت بصناعة النسيج منذ عهد الفراعنة : وأن هذه الصناعة كانت قائمة بها فى العصرين اليونانى والرومانى ، وما ازدهارها فى العصر العربى إلا استمرار وتقدم لما كانت عليه فى العصور السابقة ، ودليلنا فى هذا أن منطقة دمياط من أصلح المناطق لقيام صناعة النسيج ، فهذه الصناعة تحتاج إلى جو معتدل وافر الرطوبة ،

وهى غالباً تقوم فى المدن المجاورة للمجارى المائية ، لحاجة هذه الصناعة للماء ، ولأن هذه المجارى المائية تكون عادة وسيلة سهلة ورخيصة لنقل منتجات مصانع النسيج إلى مختلف الأسواق ؛ وهذه الشروط جميعاً كانت تتوفر فى دمياط والمنطقة المحيطة بها منذ أقدم العصور.

ويؤكد رأينا أيضاً ان معظم المؤرخين العرب يشيرون إلى أن القائمين بهذه الصناعة فى دمياط والمدن المحيطة بها فى العصر العربى الأول كانوا فى معظمهم من الأقباط سكان البلاد الأصليين ، فهم كانوا أصحاب هذه الصناعة المهرة فيها ، ثم ظلوا القائمين عليها بعد الفتح العربى بقرون .

وقد ساعد على قيام صناعة المنسوجات فى منطقة دمياط قرب المادة الخام ووفرتها — وهى الكتان — فقد كانت منسوجات هذه المنطقة كلها من الكتان ، إلا أن يدخل فى نسجها خيوط من الحرير أو الذهب أو الصوف ؛ والكتان كان يزرع بوفرة — فى تلك العصور — فى أراضى شرق الدلتا أو الفيوم .

ونمت هذه الصناعة وازدهرت ازدهاراً عظيما فى العصر العربى فى مدينة دمياط والمدن المحيطة بها فى بحيرة المنزلة وحولها ، وخاصة : شطا وتنيس ودبيق وتونة وبورة ودميرة . وكانت كل مدينة من هذه المدن تختص بانتاج نوع بعينه من المنسوجات ؛ فدمياط تنتج المنسوجات البيضاء وحدها ، وتنيس تنتج المنسوجات الملونة بألوانها المختلفة ، ودبيق امتازت بالمنسوجات الصفيقة المتينة . . وهكذا .

ولهذا نسب كل نوع من هذه الأقمشة إلى المدينة التى تنتجه ، وشهر بها ؛ فنسمع فى كتب المؤرخين عن : القماش الدبيقى والدمياطى ، والثياب الشطوية .. إلخ وإن لم يمنع هذا من أن بعض هذه المدن كانت تصنع الثياب المشهورة بصنعها البعض الآخر .

هذه الحقائق كلها يرددها المؤرخون والرحالة من العرب وغير العرب منذ القرن الثانى للهجرة . فابن حوقل — وهو من جغرافى القرن الرابع — يقول : « تنيس ودمياط . . : وبهما يتخذ رفيع الدبيقى والشرب والمصبغات من الحلل التسية التى ليس



صناعة النسيج ، صناعة قديمة قدم المدينة نفسها

فى جميع الأرض ما يدانيها فى الحسن والقيمة . . . وضياعها شطا ودبق ودميرة وتونة وما قاربها من تلك الجزائر ، يعمل بها الرفيع من هذه الأجناس » ، ثم نص على أن نسيج تنيس ودمياط كان يفوق نسيج هذه المدن والقرى جميعاً ، فقال : «وليس ذلك بمقارب للتنيسى والدمياطى».

ووصف المقدسى — وهو من جغرافيى نفس القرن — تنيس وصفاً جميلا يدل على عظم مكانتها فى ذلك العصر ، قال : « تنيس . . . مدينة وأى مدينة ، هى بغداد الصغرى ، وجبل الذهب ، ومتجر الشرق والغرب ؛ أسواق ظريفة ، وأسماك رخيصة ، وبلد مقصود ، ونعم ظاهرة ، وساحل نزيه ، وجامع نفيس ، وقصور شاهقة ، ومدينة مفيدة رفقة ، إلا أنها فى جزيرة ضيقة ، والبحر عليها كحلقة ملولة قذرة ، والماء فى صهاريج مغلقة ، أكثر أهلها قبط . . . وبها يعمل الثياب والأردية الملونة » وترك المقدسى تنيس إلى دمياط ، فرآها تفضل أختها فى كثير ، فقال مقارناً : « دمياط . . تسير فى هذه البحيرة (بحيرة تنيس) يوماً وليلة . . . إلى مدينة أخرى ، هى أطيب وأرحب ، وأوسع وأفسح وأحزب ، وأكثر فواكه ، وأحسن بناء ، وأوسع ماء ، وأحذق صناعا ، وأرفع بزاً ، وأنظف عملا ، وأجود حمامات وأوثق جدارات ، وأقل أذايات من تنيس ، عليها حصن من الحجارة ، كثيرة الأبواب ».

ولسنا نعرف بالتحديد عدد مصانع النسيج فى دمياط فى القرون العربية الأولى ، ولكن المسعودى ذكر أن تنيس كان بها نحو خمسة آلاف منسج ، فاذا تذكرنا قول المقدسى إن دمياط كانت أوسع من تنيس وأفسح ، وأحذق صناعاً وأرفع بزاً ؛ استطعنا أن نقول إن دمياط كان بها فى نفس الوقت نحو ستة آلاف منسج على أقل تقدير .

وكانت هذه المصانع تنتج الأقمشة الشعبية كما كانت تنتج الطرز الملوكية مما يلبسه الولاة وأسراتهم ، ومما يخلعه هؤلاء الولاة على الأمراء ورجال الدولة ، أو مما يهدى إلى الخليفة والسفراء والملوك.

واختصت دمياط والمدن المحيطة بها منذ أوائل العصر العربى بنسيج كسوة الكعبة ، ومع أن مصر كانت ولاية تابعة للخلافة العباسية ، فان الخلفاء العباسيين كانوا يأمرون بصناعة الكسوة التى يرسلونها إلى الكعبة فى مصانع دمياط ومدنها ، ولم تكن مدينة من هذه المدن تستأثر وحدها بصناعة الكسوة ، بل كانت جميعا تتبادل هذا الشرف ، فهى مرة تنسج فى شطا ، ومرة أخرى فى تنيس أو تونة أو دمياط . . . إلخ

وكانت دمياط — كما ذكرنا — تنسج المنسوجات البيضاء وحدها ، كما كانت تنيس تصنع المنسوجات الملونة ، وكان ينسج فى دمياط وتنيس نوع من الثياب الدقيقة الرقيقة يسمى البدنة ، يباع الثوب منه — إذا نسج من الكتان وحده — بمائة دينار ، وإذا نسج من الكتان والذهب بمائتى دينار ، ويقول ابن زولاق : « ويباع الثوب الأبيض بدمياط وليس فيه ذهب بثلاثمائة دينار » .

ويبدو أن دبيق كانت تمتاز على رصيفتيها دمياط وتنيس فى أول العصر العربى بجودة نسيجها ومتانته ، ولهذا أطلق العراقيون فى ذلك العصر على إحدى قرى بغداد اسم (دبقية) وكانوا يبيعون منسوجاتها على أنها دبيقية لتروج فى السوق رواج منسوجات دبيق المصرية المشهورة بالجودة والمتانة.

روينا أن المسعودى ذكر أن تنيس كان بها خمسة آلاف منسج ، وقدرنا نحن أن مناسج دمياط كانت تزيد على هذا العدد ، فاذا أضفنا إلى هذه وتلك مناسج المدن المجاورة المحيطة بدمياط كتنيس ودبيق وبورة وتونة ودميرة استطعنا أن نعرف أن إنتاج هذه المنطقة من المنسوجات فى ذلك العصر كان إنتاجاً ضخماً يغطى حاجة السكان ويفيض منه قدر كبير يصدر إلى الخارج ، ولسنا نقول هذا استنتاجاً وإنما يؤيدنا فيه أقوال المؤرخين . وكانت أكبر كمية من هذه المنسوجات تصدر إلى العراق مقر الخلافة العباسية . وبلغت منسوجات دمياط شهرة عظيمة فى بلاد فارس حتى أن أكبر مدينة فارسية لصناعة النسيج — وهى كازرون — كانت تسمى : (دمياط الأعاجم) وكانت منسوجات دمياط وما حولها تصدر أيضاً إلى جدة ، وقد تحمل منها إلى الشرق

الأقصى ، فالمقدسي يروى أن الضريبة التي كانت تؤخذ بثغر جدة «على سفط ثياب الشطوى ثلاث دنانير ، ومن سفط الدبيقي ديناران ».

وكانت مصانع النسيج في المدن المصرية في العصر العربي تسمى : (دار الطراز) وكان في كل مدينة من هذه المدن نوعان من هذه الدور : دار طراز الخاصة ، ودار طراز العامة ؛ والراجح أن النوع الأول — وهو دار طراز الخاصة — كان ينتج المنسوجات التي تصنع منها كسوة الكعبة أو ملابس الخلفاء والوزراء والولاة ونسائهم أو الخلع التي يخلعها هؤلاء جميعاً على القواد والعلماء وكبار رجال الدولة أما النوع الثاني — وهو دار طراز العامة — فكان ينتج المنسوجات التي تباع للشعب أو تصدر للخارج .

وكانت هذه الدور جميعاً ملكاً للحكومة تشرف عليها ، وتعين موظفيها ، وتؤجر عمالها ؛ كما كان يقوم إلى جانب هذه الدور مناسج أهلية يعمل فيها الأهلون لحسابهم — النساء يقومون بالغزل والرجال يقومون بالنسيج — . ولكن الحكومة كانت تشرف أيضاً على هذه المصانع الأهلية ، فكانت تمد النساجين بالمواد الخام ، فلا يستعملون منها إلا ما كان عليه خاتم السلطان ، أما مصنوعاتهم فما كانوا يستطيعون بيعها إلا عن طريق موظف الحكومة المعين لذلك . أما الأقمشة المعدة للتصدير فكانت تخضع لنظام حكومي دقيق ، كل ذلك للمحافظة على القيمة الصناعية للمنتجات وعلى المستوى الرفيع الذي اكتسبته وامتازت به منسوجات هذه المنطقة.

وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان أن هذه المصانع الأهلية في دمياط كانت تقوم قبلي المدينة على الخليج الذي كان يمر عبر المدينة ويصب في بحيرة تنيس ، كما ذكر أن هذه المصانع كانت تسمى «بالمعامل» قال : «ومن ظريف أمر دمياط أنه في قبليها على الخليج مستعمل فيه غرف تعرف بالمعامل يستأجرها الحاكة لعمل الثياب الشرب ، فلا تكاد تنجب إلا بها ، فإن عمل بها ثوب وبقي منه شبر ، ونقل

إلى غير هذه المعامل ، علم بذلك السمسار المبتاع للثوب فينقص من ثمنه لاختلاف جوهر الثوب عليه».

وعندما استقل الفاطميون بمصر عنوا عناية خاصة بصناعة النسيج وبدور الطراز، فقد امتازت الحياة في عصرهم بالبذخ والترف. وسن خلفاؤهم تقاليد خاصة للاحتفال بالمواسم والأعياد ، وكانوا يسبغون في هذه المناسبات الهدايا والخلع من منسوجات دمياط وتنيس ودبيق على وزرائهم وكبار رجال دولتهم.

وظل الحال على هذا في العصر الأيوبي وإن كانت الحروب الصليبية التي توالت على دمياط قد أثرت في نشاط هذه الصناعة . وفي نهاية هذه الدولة هدمت دمياط فهدمت بتهديمها مصانع النسيج بطبيعة الحال.

ولكن الموقع الجغرافي كما ذكرنا يساعد على قيام هذه الصناعة في هذه البقعة ولهذا لم تلبث أن قامت صناعة النسيج ثانية في دمياط الجديدة ، ولكنها لم تستطع أن تستعيد سابق مجدها . أما تنيس فقد هدمت مصانعها ومبانيها في عهد الملك الكامل محمد الأيوبي.

وظلت دمياط تشتهر أيضاً بصناعة النسيج طول العصرين المملوكي والعثماني ، وهذا يفسر لم أنشأ محمد علي بها مصنعاً آلياً جديداً لصناعة الغزل . ومصانع النسيج الأهلية المنتشرة في دمياط حتى اليوم هي الأثر الباقي لمجد هذه الصناعة والمنحدر مع المدينة من أقدم العصور . ولكن يبدو أن دمياط في هذه العصور المتأخرة اتجهت إلى نسج الحرير وخاصة بعد انتشاره من الصين في أنحاء العالم وبعد أن كثر إنتاجه بالشام ذات الصلات التجارية الدائمة مع دمياط . وقد انتهى الأمر كما نرى اليوم إلى قيام مصانع بنك مصر الجديدة التابعة لشركة مصر لنسج الحرير .

وقد كانت تقوم في دمياط في العصور القديمة صناعات أخرى غير النسيج أهمها عصر السمسم وصناعة الأكياب وصيد الأسماك والطيور ، هذا عدا الصناعات المنزلية المختلفة كالنجارة والحدادة والصناعات الجلدية . . . إلخ.



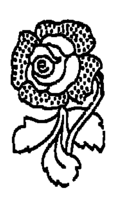
صيد السمك بشواطىء دمياط -

وقد اتجه سكان دمياط أخيراً ـ بعد القضاء على تجارة المدينة الخارجية ـ إلى العناية بهذه الصناعات حتى عمموها وأتقنوها وبزوا فيها الصناع الأوربيين ، فغدت دمياط أهم مدن القطر جميعاً فى إنتاج الأثاث والأحذية والجبن ، وكان لوفرة إنتاجها فى هذه الصناعات جميعاً أثر كبير فى إنقاص كميات الوارد منها إلى المملكة المصرية ، بل إن مصر تصدر الآن كميات كبيرة مما تنتجه دمياط من هذه السلع إلى الخارج.

وإن ننسى لاننسى أخيراً صناعة ضرب الأرز ، فهى صناعة قديمة بدمياط وقد ساعد على وجودها صلاحية الأراضى المجاورة للمدينة لإنتاج هذا النبات وقد كان الأرز دائماً من أهم صادرات دمياط إلى الخارج.

* * *

وبعد فهذه صورة سريعة لتاريخ دمياط من أقدم العصور حتى الآن ـ سياسياً واقتصادياً ـ ، أرجو أن أكون قد وفقت فى تقديمها وإيضاحها ، كما ارجو أن يوفقنى الله سبحانه وتعالى إلى استكمال ألوانها وإبرازها للناس أتم وأوفى وأوضح مما هى عليه هنا فى فرصة قريبة إن شاء الله .



الفهرس

الصفحات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقم الإيداع	٢٠٠٠/٢٢٥١
الترقيم الدولي	977-5250-75-7



الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ ش بورسعيد ـ الظاهر
ت : ٥٩٢٢٦٢٠ ـ فاكس : ٥٩٣٦٢٧٧